مساوئ قتلة الحسين بن علي
رضوان الله عليهما

حدّثنا عبد الله بن أحمدَ بن إبراهيم، عن يحيى بن مَعين، عن الحجّاج، عن أبي مَعْشر، قال: لمّا مات معاويةُ بنُ أبي سفيانَ، وذلك في النصف من رجب سنة ستين، وَرَدَ خبرُه على أهل المدينة في أوّل شعبان، وكان على المدينة يومئذ الوليدُ بن عُتبة بن أبي سفيان - وكان غلامًا حَدَثا يتحرَّج[1] - فلما جاءه ما جاءه ضاق به صدرُه، فأرسل إلى مَرْوان بن الحكم - وهو الذي صُرِفَ به مروانُ عن المدينة - وكان في مروان حِدّة، فقال له الوليد: يا أبا عبد الملك، إنه قد جاءَنا اليومَ شيء لم نكن نستغني معه[2] عن استشارتك. قال: وما هو؟ قال: موتُ أمير المؤمنين، قال: ﴿إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون﴾[3]! مات رحمه الله! قال: نعم. قال: أتُطيع أمري؟ قال: نعم. قال: أرْسِل إلى الحسين بن عليّ وإلى عبد الله بن الزُّبير، فإن بايَعا فَخَلِّ سبيلَهما، وإن أبَيا فاضرِبْ أعناقَهما.

فأرسلَ إلى الحسين رضوان الله عليه، وإلى عبد الله بن الزّبير رحمه الله، وبدأ بالحسين. فمرّ الحسينُ في المسجد، فأشار إليه ابن الزُّبَير وهو قائم يصلّي، فأتاه، فقال للحَرَسيّ: تأخَّرْ أيها العبد، فتأخَّرَ الحَرَسيُّ، فقال له: يا أبا عبد الله، أتَدْرِي لأيّ شيء دعيت؟ قال: لا، قال: مَات طاغِيَتُهم، فدعَوْك للبَيْعة، فلا تُبايع، وقل له: بالغَدَاة على رءوس الملأ.

قال: فدخل الحسين عليه السلام، فقال له الوليد: يا أبا عبد الله، دَعَوْناك لخير، قال: أيّ شيء هو؟ قال: مات أميرُ المؤمنين، وقد عرفتم ولِيَّ عهدِكم ومَفزَعكم، وقد بايع أهلُ الشّام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس. قال: نعم بالغداة إن شاء الله؛ لا بل الساعة، قال: ومِثلي يُبايع في جوف البيت! بالغداة على رءوس الناس، قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل، وخرج من عنده.

فأرسل إلى ابن الزبير فقال: يا أبا بكر، دعوناك لخير، قال: وما هو؟ قال: مات أمير المؤمنين، فقال: ﴿إنَّا لله وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾! رحمةُ الله عليه قال: فجعل يردِّد الترحّم عليه، وقد نظر ابن الزُّبير قبل ذلك إلى مروان وهو يناجي الوليد، فتلا هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا الله وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾[4]. فقال: يا أبا بكر، قد عرفتُم ولِيَّ عهدِكم ومفزعكم، وقد بايع أهلُ الشام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس، قال: نعم، بالغداة إن شاء الله، قال: لا بل

---

(١) يقال: تحرج من الأمر: أي تأثم، وحقيقته: جانب الحرج: أي الإثم.

(٢) كذا في ل، وفي ك: «فيه».

(٣) سورة البقرة: ١٥٦.

(٤) سورة الأنفال: ١.

الساعة، قال: ومثلى يبايع فى جوف البيت! أبايعك على رءوس الملأ. قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل.

فقال مرْوَان للوليد: ما تصنع! أطعنى واضرب أعناقهما، لئن خرجا من البيت لا تراهما أبدًا إلّا فى شرّ - وكان الوليد متحرِّجًا - فقال: ما كنت لأقتلهما؛ فقال ابن الزبير لمروان: يا بن الزَّرقاء، أوَ تقدر على قتلنا؟ فقال مروان: إنه والله لو أطاعنى ما خرجت ولا صاحبك من البيت حتى تُضرب أعناقكما.

قال: فدعا الحسينُ عليه السلام بروَاحِله، فركب يتوجّه نحو مكة على المنهج الأكبر، وركب ابن الزبير رحمه الله دوابَّ له، وأخذ طريق الفُرْع[١]، فأتى الحسين عليه السلام عبدُ الله بنُ مطيع وهو على بئره، فنزل إليه، وقال: يا أبا عبد الله، أين تريد؟ قال: العراق؛ مات معاوية، وجاءنى أكثر من حِمْلِ صُحُف. قال: لا تفعل، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيرًا منك! ووالله لئن قتلوك لا تبقى حرمةٌ بعدك إلا استُحِلّتْ. فمرَّ الحسين عليه السلام حتى نزل مكة، فأقام بها هو وابن الزّبير رحمه الله. وقدم عَمرو بن سعيد بن العاص فى رمضان أميرًا على المدينة وعلى المَوسِم، وعزل الوليدَ بن عُتْبة، فلما استَوى على المنبر رَعِف، فقال أعرابىّ: مه! جاء والله بالدم. قال: فتلقاه رجلٌ بالعمامة، فقال: مهْ! عمّ الناسَ والله، ثم قام[٢] وبيده عصًا لها شُعْبَتَان: [فقال][٣]: قد شُعِب[٤] الناس والله، ثم خرج إلى مكة فقدمها قبل التروية[٥] بيوم، وخرج الحسين عليه السلام، فقيل له: خرج الحسين، فقال: اركَبُوا كلّ بعير وفرس بين السماء والأرض فى طلبه فاطلبوه. قال: فكان الناس يتعجّبُون من قوله هذا، فطلبوه فلم يدركوه، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنيه: عَوْنًا ومحمدًا ليردا الحسينْ، فأبى الحسينُ أن يَرجع، وخرج ابنىْ عبد الله معه، ورجع عَمرو بنُ سعيد إلى المدينة، وبعث بجيش يقاتلون ابن الزّبير، وقدَّم الحسين عليه السلام مسلَم بن عَقيل إلى الكوفة ليأخذ عليهم البَيْعة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، النعمانُ بنُ بَشير بنِ سعد الأنصارى، فلمّا بلغه خبر الحسين عليه السلام قال: لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلينا من ابن بنت بَحْدَل[٦]. فبلغ ذلك يزيد، فأراد أن يعزلَهُ، فقال لأهل الشام: أشيروا على مَن أستعمل على الكوفة؟ فقالوا: أترضى برأى معاوية؟ قال: نعم. قالوا: فإن العهد بإمارة عبيد الله بن زياد على العراقَيْن قد كُتب فى الديوان، فاستعمله على الكوفة. فقدِم الكوفة قبلَ أن يَقدَمَ الحسينْ عليه السلام، وقد بايع مسلم بن عَقيل أكثر من ثلاثين ألفًا من الرجال من أهل الكوفة، فخرجوا معه يريدون عُبيد الله بن زياد، فجعلوا كلما انتهوا إلى زقاق انسلّ ناسٌ منهم حتّى بقى فى شِرْذِمَةٍ قليلة،

---

(١) الفرع، بالضم: قرية من نواحى الربذة، على طريق مكة.

(٢) ط: «قال» والصواب ما أثبته من العقد.

(٣) تكملة من العقد.

(٤) شعب القوم: تفرقوا. وفى العقدة: «لشعب».

(٥) يوم التروية: الثامن من ذى الحجة.

(٦) هى ميسون بنت بحدل بن أنيف، من بنى حارثة بن جناب الكلبى، أم يزيد بن معاوية. تاج العروس ٧: ٢٢٢.

وجعل الناس يرْمُونه بالآجرِّ من فوق البيوت، فلما رأى ذلك دخل دار هانئ بن عروة المُرادىّ - وكان له فيهم رأى - فقال له هانئ: إن لى من زياد مكانًا، وسوف أتقارض، فإذا جاء يعودنى فاضرب عنقَه، فقيل لابن زياد: هانئ بن عروة شاكٍ يقئ الدم - وكان شرب المَغْرة[1] - فجعل يقيئها، فجاء ابن زياد يعوده، وقال هانئ لمسلم: إذا قلت اسقونى ولو كانت نفسى فيه فاضرب عنقه، فقال: اسقونى، فأبطئوا عليه، فقال: ويحكم اسقونى ولو كانت فيه نفسى!.

قال: فخرج ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئًا - وكان أشجَع الناس، ولكن أخذتْه كَبْوه - فقيل لابن زياد: والله إنّ فى البيت رجلًا متسلِّحًا، فأرسل ابنُ زياد إلى هانئ فدعاه فقال: إنى شاكٍ[2]، فقال: أتتونى به وإن كان شاكيًا، قال: فأسرِجَتْ له دابّه فركب، وكانت معه عصًا، وكان أعرَج، فجعل يسيرُ قليلًا قليلًا، ثم يقف ويقول: مالى ولابن زياد! فما زال حتّى دخل عليه، فقال: يا هانئ، أَمَا كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى، قال: فيدى؟ قال: بلى، فتناول العصا التى كانت فى يد هانئ فضرب بها وجهَه حتى كسر جبهته، ثم قدّمه فضرب عنقه، ثم أرسل إلى مسلم بن عقيل فخرج عليهم بسيفه، فما زال يُناوِشُهم، ويقاتلهم حتى جُرِحَ وأسر، فعطش وقال: اسقونى ماء، ومعه رجل من آل أبى مُعَيط ورجلٌ من بنى سُليم، فقال شَمِر بن ذى جَوشَن: والله لا نَسقِيك إلّا من البئر؛ وقال المعيطىّ: والله لا نسقيه إلا من الفرات؛ فأتاه غلام له بإبريق من ماء، وقدح قوارير ومِنْديل، فسقاه، فتمضمض، فخرج الدم، فما زال يَمُجُّ الدمَ ولا يسيغ شيئًا حتى قال: أخره عنى، فلما أصبح دعاه عبيد الله ليضرب عنقه فقال له: دعنى أوصِ، فقال: أُوْصِ، فنظر فى وجوه الناس، فقال لعمرو بن سعد: ما أرى هاهنا أحدًا من قريش غيرك، فادْنُ منى حتى أكلِّمَك؛ قال: فدنا منه فقال له: هل لك أن تكون سيّد قريش؟ قال: نعم؛ قال: قال: إن حُسينًا ومَنْ معه وهم تسعون إنسانًا بين رجل وامرأة فى الطريق، فارْدُدْهم، واكتب إليه بما أصابَنى. ثم أمر عبيد الله فَضُرِب عنقُه، فقال عمر: أتدرى ما قال؟ قال: اكتم على ابن عمك، قال: هو أعظم من ذاك، قال: اكتم على ابن عمك! قال: هو أعظمُ من ذاك؛ قال: أىّ شىء هو؟ قال: أخبرنى أن حسينًا قد أقبل ومعه تسعون إنسانًا بين رجل وامرأة، فقال: أما والله لو إلىّ أسَرّ لرددتُهم، لا والله لا يقاتلهُم أحدٌ غيرك، فبعث معه جيشًا.

وجاء الحسينَ عليه السلام الخبرُ وهو بشراف فهم أن يرجع، ومعه خمسة من بنى عقِيل، فلقيه الجيش على خيولهم بوادى السِّباع، فقال بنو عَقيل: أترجع وقد قُتِل أخونا! فقال الحسين عليه السلام: مالى عن هؤلاء من صَبْر - يعنى بنى عقِيل، فأصاب أصحابه العطش، فقالوا: يا بن رسول الله، اسْقِنا؛ فأخرج لكلّ فارس صحفةً من ماء، فسقاهم بقدر ما يمسِك رمَق أحدِهم، ثم قالوا: سِرْ بنا، وأخذوا به على الجُرف حتى نزلوا كربَلَاء، فقال: هذا كربٌ وبَلاء، فنزلوا وبينهم وبين الماء يسير، قال: فأراد الحسين عليه السلام وأصحابه الماء، فحالوا بينهم وبينه، فقال له شَمِر بن ذى جوشن: لا تشربوا أبدًا حتى تَشربوا من الحميم، فقال العباسى بن على للحسين عليه السلام:

---

(١) المغرة: الطين الأحمر.

(٢) الشاكى هنا: المريض.

يا أبا عبد الله، ألسنا على الحقّ؟ قال: نعم، فحَمل عليهم، فكشفهم عن الماء حتى شربوا وأسقوا.

ثم بعث عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد أنْ قاتلهم. فقال الحسين عليه السلام: يا عمر، اختَرْ منّى إحدى ثلاث: تتركنى أرجع كما جئت، وإن أبيتَ هذه فسيِّرنى إلى الترك أقاتلهم حتى أموت، وإن أبيت هذه فأبعث بى إلى يزيد لأضعَ يدى فى يده. وأرسل إلى ابن زياد بذلك، فَهَمَّ أن يسيِّره إلى يزيد، فقال له شمِرُ بن ذى جَوْشن: قد أمكنك الله منه - أو قال: من عدوِّك - وتسير إلى الأمان! لا، إلّا أن ينزلَ على حُكْمك. فأرسل إليه بذلك، فقال: لا حُبًّا ولا كرامة! أتُنزل على حكم ابن سُمَيّة!

وكان مع عمر بن سعد قريب من ثلاثين رجلًا من أهل الكوفة، فقالوا: يَعْرِض عليكم ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ خصال: فلا تقبلون منها شيئًا! فتحوّلوا مع الحسين عليه السلام، فقاتلوا حتى قُتلوا، وقُتل، الحسين رضى الله عنه وجميع من معه رحمهم الله، وحُمِلَ رأسُهُ إلى عُبيد الله بن زياد، فوضع بين يديه على تُرْس، فبُعث به إلى يزيد، فأمر بغَسْله، وجعله فى حريرة، وضرب عليه خَيْمة وَوَكّل به خمسين رجلًا. فقال واحد منهم: نمت وأنا مفكّر فى يزيد وقتلِه الحسين عليه السلام، فبينا أنا كذلك إذ رأيت سحابةً خضراء فيها نور قد أضاءت ما بين الخافقين، وسمعت صَهيلَ الخيل ومناديًا ينادى: يا أحمد، اهْبِط، فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من الأنبياء والملائكة، فدخل الخيمة وأخذ الرأس، فجعل يقبِّله ويبكى ويضمُّه إلى صدره، ثم التفت إلى من معه فقال: انظروا إلى ما كان من أمَّتى فى ولدى! ما بالهم لم يحفظوا فيه وصيّتى، ولم يعرفوا حقّى! لا أنالَهم الله شفاعتى. قال: وإذا بعدّة من الملائكة يقولون: يا محمد، الله تبارك وتعالى يقرئك السلام، وقد أمَرنا بأن نسْمَع لك ونطيع. فمرْنا أن نقلب البلادَ عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «خلوا عن أمتى فإن لهم بلغَةً وأمدًا». قالوا: يا محمد، إن الله جلّ ذِكْره أمرنَا أن نقتل هؤلاء النفر، فقال: «دُونَكم وما أمِرتم به». قال: فرأيت كل واحد منهم قد رمى كل واحد منّا بحربة، فَقُتل القوم فى مضَاجعهم غيرى، فإنى صحتُ: يا محمد، فقال: «أوَأنتَ مستيقظ؟»، قلت: نعم، قال: «خَلُّوا عنه، يعيش فقيرًا ويموت مذمومًا» فلما أصبحت دخلتُ على يزيد وهو منكسر مهموم، فحدَّثته بما رأيت، فقال: امضِ على وجهك وتب إلى ربِّك[1].

* * *

أبو عبد الله غلام الخليل رحمه الله، قال: حدثنا يعقوب بنُ سليمان، قال: كنت فى ضيْعتى، فصلّينا العَتَمَة، وجعلنا نتذاكر قتْل الحسين عليه السلام، فقال رجل من القوم: ما أحدٌ أعانَ عليه إلّا أصابه بلاء قبل أن يموت؛ فقال شيخٌ كبير من القوم: أنا ممّن شهدَها، وما أصابنى أمر كرهتُه إلى ساعتى هذه. وخبا السراجُ، فقام يصلحه، فأخذته النار، وخرج مبادرًا إلى الفُرات وألقى نفسه فيه، فأشتعَل وصار فحمة.

* * *

(١) الخبر فى العقد ٤: ٣٧٦ - ٣٨٠ مع اختلاف فى الرواية.

قيل: ودخل سنان بن أنس على الحجَّاج بن يوسف فقال: أنت قتلت الحسينَ بن عليّ؟ فقال: نعم، قال: أما إنّكما لن تجتمعا فى الجنّة، فذكروا أنهم رأوه مَوسوسًا يلعب ببوله كما يلعب الصِّبيان.

قال: وقال محمد بن سيرين: ما رئيت هذه الحُمْرة فى السماء إلّا بعد ما قُتِل الحسين عليه السلام، ولم تُطمَث امرأةٌ بالروم أربعة أشهر إلّا أصابها وَضَح. فكتب ملك الروم إلى ملك العرب: قتلتم نبيًّا، أو ابن نبيّ.

وروى أنه لما قُتل رضى الله عنه احمرَّت آفاقُ السماء، واقتسموا ورسًّا كان معه فصار رَمادًا، وكانت معه إبلٌ فجزروها فصارت جَمْرةً فى منازلهم.

obeikandl.com

مساوئ الحـرّة

قال: ولَما كان من أمرِ الحسين عليه السلام ما كان، قدِم عمرُو بن حفص بن المغيرة - وكان تزوّج يزيد بن معاوية ابنته، وأعطاه مالاً كثيرًا - فلما قَدِم المدينة، جاءه محمد بن عمرو بن حَزْم، وعبيد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مُطيع بن الأسود، وناسٌ من وجوه أهل المدينة، قالوا: نَنشُدُك الله ربَّ هذا البيت، وربّ صاحبِ هذا القبر، إلا أخبرتنَا عن يزيد! فقال: إنه لَيشرب الخمر، ويُنادِم القرد، ويفعل كذا ويصنع كذا. فقالوا: والله ما لَنا بأهل الشام من طاقة، ولكن ما يحلّ لنا أن نُبايعَ رجلًا على هذه الحال، فقال محمد بنُ عمرو لأهله: هاتوا دِرْعِي. ثم خرج.

فخرج أهل المدينة وخلعوا يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان وبنى أمية من المدينة - وكان عثمان والى المدينة - ثم قال محمد بن أبي جهْم لأهل المدينة: أطيعوا أمرى اليوم، واعصُونى الدهر. اقتلوا سبعة عشر رجلًا من بنى أميّة لا تروا شرًّا أبدًا. فأبى أهل المدينة أن يقتلوهم، وأخذوا عليهم المواثيقَ ألاّ يرجعوا إلى المدينة مع جيش أبدًا. فبعث عثمانُ بن محمد بن أبي سفيان قميصه مشقوقًا إلى يزيد، وكتب إليه: واغَوْثاه! إن أهلَ المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، وشَقُّوا ثَوْبِى، وارتكبوا منى[1].

قال أبو مَعشر: حدّثنا رجل قال: خرج علينا يزيد بعد العتمة ومعه شمعتان: شمعة عن يمينه، وشمعة عن يساره، وعليه مُعصفرتان كأنهما قطرتا دمٍ، وإزارٌ ورداءٌ، وقد نفَش جُمّته كأنها بِرْس[2]. فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، يا أهل الشام، فإنّه كتب إلىّ عثمانُ بن محمد بن أبي سفيان: إن أهلَ المدينة أخرَجوا قومنا من المدينة، ووالله لأن تَقع الخَضْراء على الغَبْراء أحبّ إلىّ من هذا! قال: وكان معاوية أوصَى يزيد: إنْ رابك من قومك رَيْب، أو انتقَضَ عليك منهم أحدٌ، فعليك بأعْورِ بنى مُرّة فاستشره - يعنى مسلم بن عُقْبة. فلمّا كان تلك الليلة قال: أين مسلم بنُ عُقْبة؟ فقام وقال: هأنذا، قال: كن معى، فجعل يزيد يعبِّى الجيوش - وكان ابن سنان نازلًا على مُسلم - فقال له: إنّ أميرَ المؤمنين قد بعثَنى إلى المدينة ومكّة، قال: استعفِه، قال: لا، قال: فاركب فيلًا أو فيلة وتَكَنّ أبا يَكسُوم. فمرض مسلم قبل خروجه من الشام، فدخل عليه يزيدُ ابن معاوية، فقال: قد كنت وجّهتُك لهذا البعث، وأراك مُدنَفًا! فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدُك الله ألاّ تَحْرِمَنى أجرًا ساقَه الله إلىّ، إنما هو أمر خفيف، وليس علىّ من بأس. قال: فلم يُطِق من الوجع أن يَركبَ بعيرًا ولا دابّة. قال: فوُضِع على سرير، وحمله الرجالُ على أعناقهم حتى جاءوا به مكانًا

---

(١) كذا فى الأصل. وفى العقد «كتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من خلاف».

(٢) فى الأصل: «نرس». والبرس: القطن المندوف.

يقال له البَثْراء[١]، فأراد النزول به، فقال: ما اسم هذا المكان؟ قيل البَثْراء، قال: لا تنزلوا به، فنزلوا بقهر[٢]. ثم ارتحلوا حتى نزلوا الحرّة.

فأرسل إلى أهل المدينة: إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول: أنتم الأصل والعَشِيرة، فاتّقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإنّ لكم فى عهد الله وميثاقه عطاءين فى كلّ سنة: عطاءٌ فى الشتاء، وعطاءٌ فى الصيف، ولكن عندى فى عهد الله أن أجعل سِعْرَ الحنطة عندكم سعر الخَبط - والخَبط يومئذ سبعة[٣] أصوُع بدرهم - فقالوا: نخلعه كما نَخْلع عمائمنا ونعالَنا، فقاتَلهم فَهَزَمَهم، وقتل عبد الله بن حنظلة، وابن حَزم، وبضعة عشر رجلاً من الوجوه، وتسعون رجلاً من قريش، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار، وقُتِل من سائر الناس نحو أربعة آلاف رجل، وقتِل ابنان لعبد الله بن جعفر، وقتل أربعةٌ من ولد زيد بن ثابت. وقال مسلم لعبد الله بن جعفر: اخرج عن المدينة لا يقع بصرى عليك. وانهب المدينة ثلاثًا، فقتل الناس[٤]، وضجَّت النساء وذهبت الأموال، فلما فرغ مسلمٌ من القتال، انتقل إلى قصر ابن عامر، فدعا أهلَ[٥] المدينة ليبايعوه، وكان ناس منهم قد تحصّنوا فى عَرْصة سعيد؛ منهم محمد بن أبى جَهْم ونفرٌ معه، فدعاهم للبيعة، فقال: تبايعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين على أنكم خَوَلُه؛ مِمّا أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وَهَب، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرقّ. فبايعه ناس منهم على ذلك، وجاء عمرو بن عثمان بيزيد بن عبد الله بن زَمعة - وجدّته أمّ سَلَمة زوج النبى ﷺ، وكان عمرو بن عثمان قال لأمّ سلمة: أرسلى معى ابن ابنتك ولكِ منّى عهدُ الله وميثاقه أن أردّه إليك كما أخذتهُ منك. فجاء به إلى مُسلم، فجلس عمرو بن عثمان على طَرَف سريره، فلما تقدّم يزيد بن عبد الله، قال: تبايع ليزيد أمير المؤمنين على أنك من خَوَله مما أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وهَبَ وإن شاء أعتق، وإن شاء استرقّ. فقال: لا، أنا أقرب إلى أمير المؤمنين منك، فقال: والله لا أستقيلها منك أبدًا. فقال عمرو بن عثمان: أنشدك الله فإنى أخذتهُ من أمّ سلمة بعهد الله وميثاقه أن أردَّه إليها.

قال: فَرَكَله وَرَمَى به من فوق السرير، فقال: لو قتلها ما أقلتُك، فقتِل يريد بن عبد الله، ثم أتَى بمحمد بن أبى جَهم، فقال له: أنت القائل: اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بنى أمية لا تروا شرًّا أبدًا! قال: قد قلتُها، ولكن لا يطاع لقصير أمرٌ، أرْسِل يَدِى من غُلّى، وقد بَرئت منى الذّمة، قال: لا، حتى أقدمك إلى النار، فضرب عنقه، ثم جاءوه بمعقلِ بن سنان وكان جالسًا فى بيته، فأتاه مائة رجل من قومه، فقالوا: اذهب بنا إلى الأمير حتى نَبايِعُه، فقال: إنى قد قلت له كلمة، وإنى أتَخَوّفه، قالوا: لا والله لا يصل إليك أبدًا. فلما بلغوا البابَ أدخلوا معقِلاً وغلّقوا الباب، فلّما نظر إليه مسلم قال: إنى أرى الشيخَ قد لغب، اسقوه من الثلج الذى زوَّدَنيه أمير المؤمنين. قال: فخاضوا[٦] له ثلجًا بغسَل، فشربه، فقال: أشربت؟ قال: نعم. قال: والله لا تَبولهُ من مَثَانَتِك أبدًا، أنت القائل:

---

(١) البثراء: ذكره صاحب مراصد الاطلاع وقال: اسم جبل.
(٢) القهر: أسافل الحجاز مما يلى نجد.
(٣) ك: «تسعة».
(٤) ل، ك: «النساء».
(٥) ك: «بأهل».
(٦) خاضوا له، أى خلطوا.

اركب فيلاً أو فيلة، وتكنّ آبا يكسوم! قال: أما والله لقد تخوّفتُ ذلك منك، ولكن غلبتنى عشيرتى، قال: فجعل يفزِّر جُبَّةً عليه من بُرود ويقول: أما والله يا أعداء الله ما شققتها جزعًا من الموت، ولكنى أخشى أن تُسلَبُوا منها. فضربت عنقه. ثم سار إلى مكة حتى إذا بلغ قَفَا المشلَّل[١] دَنِف، فدعا بحصين بن نُمير الكِندىّ، فقال: يا بردعَة الحمار، والله ما خَلَق الله أحدًا هو أبغضُ إلىّ منك، ولولا أن أمير المؤمنين أمرنى أن استخلفكَ ما استخلفتك، أتسمع؟ قال: نعم. قال: لا يكون إلاّ الوقَاف ثم الثقاف ثم الانصراف[٢]، لا تمكِّن أذنيك من قريش.

ثم مات مسلم لا رحمه الله، فدُفن بقَفَا المشلّل وكانت أمُّ يزيد بن عبد الله بن زمعة بأسناده، فخرجت إليه فنبشته وأحرقته بالنار، وأخذت أكفانه فشقّقتها وعلّقتها بالشجرة[٣].

قال أبو معشر: أقبلتُ من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلّل عند قبر مسلم، إذا رجلٌ من أهل الشام ممّن حضر وقعةَ الحرَّة يسايرنى، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عُقْبة؛ فقال: أحدِّثك بالعجيب، كان مع مسلم رجلٌ من أهل الشام يقال له: أبو الغَرّاء، فإذا نصف شعره أسود، ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحَرّة جئت قَباء، فدخلتُ بيتًا، فإذا فيه امرأة جالسة معها صبى لها، وليس عليها شىء إلاّ دِرْع، وقد ذُهِب بكلّ شىء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله! لقد بايعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أننّى لا أزْنِى ولا أسرق ولا أقتُل ولدى. قال: فأخذت برجل الصبى فضربتُ به الحائط، فنثر دماغه، فخرجتُ فإذا نصف رأسى أبيض ونصفه أسودَ كما ترى.

---

(١) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد، من ناحية البحر.

(٢) الوقاف: أن يقف كل واحد للآخر مقام خصومة أو حرب، والثقاف: الجلاد.

(٣) الخبر فى العقد ٤: ٣٨٧ - ٣٩١.

محاسن ما قيل فيهم من الأشعار

قال كعب بن زهير فى الحسين بن علىّ رحمة الله عليهما:

مَسَحَ النَّبىُّ جَبينَه   فلَهُ بياضٌ فى الخدودِ[1]
وبوجهِهِ دِيباجةٌ   كرمُ النبوّة والجُدُودِ

[مجزوء الكامل]

قال: وأنشد الحِمْيَرىّ فى الحسن والحسين[2]:

أتى حَسَنًا والحُسْيَنَ الرَّسولُ[3]   وقد بَرَزَا حَجْرَةً يلعبانِ[4]
فَضمَّهما وتَفَدّاهُمَا[5]   وكانا لَدَيه بذاكَ المكانِ
ومرّ وتحتهمَا عاتقَاه[6]   فنعْمَ المطيّة والرّاكبان!

[المتقارب]

قال: وقال المأمون: أنصف شاعر الشِّيعة حيث يقول:

إنّا وإياكُمْ نموتُ فلا   أفلحَ بعد الموت مَنْ نَدِما

[الكامل]

وقال المأمون:

وَمِنْ غاوٍ يَغَصُّ عَلىّ غيظًا   إذا أدنيتُ أولادَ الوصِىِّ
يُحاوِلُ أن نورَ الله يُطفَى   ونورُ الله فى حِصْنٍ أبِىِّ
فقلتُ أليسَ قد أوتيت عِلمًا   وبانَ لك الرشِيدُ من الغَوِىِّ!
وعُرِّفتَ احتجاجى بالمثانى   وبالمعقول والأثَر القَوِىّ
بأيّةِ خَلّةٍ وبأىّ معنًى   تفَضّلُ مُلحدينَ على علىٍّ!
علىٌّ أعظمُ الثّقلَين حقًّا   وأفضلُهم سوَى حقّ النبىّ

[الوافر]

وقال غيره وأجاد:

إنّ اليهودَ بحبّها لنبيّها[7]   أمنَتْ مَعرّة دَهرها الخوّان

---

(١) ملحق ديوانه ٢٥٦.
(٢) الأغانى ٧: ٢٥٩ (طبعة الدار) مع اختلاف فى الرواية.
(٣) الأغانى: «النبى».
(٤) حجرة: ناحية.
(٥) الأغانى: «تفداهما ثم حياهما».
(٦) الأغانى: «فراح وتحتهما».
(٧) ل: «لحبها».

وذُو الصليب بحبّ عيسى أصبحوا ... يَمْشُونَ زَهْوًا فى قُرى نَجْرانِ
وَالمؤمِنون بحبِّ آل محمدٍ ... يُرْمَوْن فى الآفاقِ بالنّيرانِ

[الكامل]

وقال آخر سامحه الله:

يالَك من مَتجَرَةٍ كاسِدَهْ ... بين شَياطينَ عَتَتْ مارِدَهْ
إذا تذكّرْتَ بنى أحْمَدٍ ... تنافرُوا كالإبِلِ الشارِدَهْ
فقلْ لمن يَلْحَاكَ فى حُبّهمْ ... خانتْكَ فى مَوْلِدِكَ الوالِدَهْ

[السريع]

وقال دِعبل رحمه الله تعالى:

قُلْ لابنِ خائنة البُعولِ ... وابن الجَوَادَةِ والبخيلِ
إن المَذَمّةَ لِلْوَصِىّ ... هى المذَمّةُ للرّسولِ
أتذُمُّ أولاد النبىّ ... وأنتَ من ولدِ النّغولِ[1]

[مجزوء الكامل]

المَوْصِلّى النصرانىّ:

عَدِى ونُعيمٌ لا أحاول ذكْرَهُمْ ... بسوءٍ ولكنّى مُحبٌّ لهاشِمِ
وهل تأخذَنّى فى علىٍّ وحُبِّهِ ... إذا لم أعِثْ يومًا ملامةُ لائمِ
يقولون ما بالُ النصارى تُحبُّهُ ... وأهل التقى من معرب وأعاجم!
فقلت لهم إنى لأحْسِبُ حُبَّهُ ... طواه إلهى فى قلوب البهائمِ

[الطويل]

وفى بنى أمية، قيل: دخل خالد بن خليفة الأقطع على أبى العبَّاس، وعندَه علىّ بن هشام بن عبد الملك، فأشار إلى أبى العباس وهو يقول شعرًا:

إن تُعاقبُهم على رِقّةِ الدين ... فقد كان دِينُهُمْ سامريًّا
كان فحلًا زمانُهم يرمَحُ النا ... سَ، فأضحى الزمانُ مِنْهُمْ خَصِيًّا

[الخفيف]

---

(١) نغل المولود، أى فسد نسبه.

محاسن السّبق إلى الإسلام

رُوى عن عائشة رضى الله عنها قالت: خرج أبو بكر رضى الله عنه يريد رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قبل الإسلام، وكان له صِديقًا فى الجاهلية، فلقيَه، فقال: يا أبا القاسم، قعدتَ فى[1] مجالس قومك، واتّهموك بالعيب لآبائها وأدْيَانها. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّى رسول الله، أدعوك إلى الله»؛ فما كان إلّا أن سَمِع أبو بكر كلامَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فشرح الله صدرَه، فأسلم، فانصرف عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما بين الأخشبين[2] أحدٌ أكثر سرورًا بإسلام أبى بكر رضى الله عنه منه. ومضى أبو بكر حتى أتى طلحةَ بنَ عُبيد الله والزبيرَ بنَ العوّام، وسعد بنَ أبى وقاص، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. ثم [مضى] عثمان بن مظْعون وأبو عبيدة بن الجرّاح وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بنَ أبى الأرقم مع أبى بكر، فأسلموا.

* * *

وأما إسلام عمرَ رضى الله عنه، فإنّ قريشًا بعثَتْ بعمرَ رضى الله عنه ليقتلَ النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم، فخرج عمرُ متقلِّدًا سيفَه فى أثر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يومئذ فى دار فى أَصْل الصَّفَا، فلقيَه نُعيم بن عبد الله بن أسِيد – وقد أسلَم – فقال: يا عمر، أين أراك تريدُ؟ قال: أريد محمدًا؛ هذا الذى سَفَّه عقولَنا، وشتم آلهتنا، وخالَفَ جماعَتنا، لأقتلنَّه! قال نعيم: لبئس المشى والله مشيتَ يا عمر، ولقد أفرطتَ وأردتَ هَلَكَةَ عدىّ بن كعب بعاداتك بنى هاشم! أوَ ترى أنّك آمنٌ من أعمامه وبنى زُهرة وقد قتلتَ محمدًا! فتحاوَرَا، حتى ارتفعت أصواتُهما، فقال له عمر: والله لأظنّك قد صَبَأت، ولو أعلم ذلك منك لبدأتُ بك. فلما رأى نعيم أنه غيرُ منته قال: أمَا إنّ أهلَكَ قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه. فلما سمع ذلك نفرَ وقال: أيّهم؟ قال: خَتنُك وابنُ عمّك وأختُك، فانطلَق إلى أخته، وقد كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم اجتمع عليه طائفةٌ من ذوى الفاقة من أصحابه، فقال لأولى السَّعَة: يا فلان، فليكن عندَك فلان. فوافق ابن عمّ وخَتنُه سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، قد دفع إليه رسَولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خَبَّابَ بن الأرَتّ مولى أمّ أنمار حَليف بنى زُهرة، وقد أُنزِلَتْ سورة «طه». فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب دار أختهِ ليتعرّف ما بلَغه، فإذا خَبّابٌ عند أختهِ يَقْرُس عليه سورة «طه»، و«إذا الشمس كُوِّرتْ»، فلما دخل عمر حَزِرَته أختُه، وعرفت

---

(١) ل: «من».

(٢) الأخشبان: جبلان يضافان إلى مكة تارة، وإلى منى تارة، أحدهما أبو قبيس، والآخر قيقعان.

الشرُّ فى وجهه، وخَبأت الصحيفة، وراغ خَبّابٌ فدخل البيتَ، فقال عمر لأخته: ما هذه الْهَينمة[١]؟ قالت: حديثٌ نتحدّثُ به بيننا، فحلف ألّا يبَرح حتّى يتبينَّ شأنَها. فقال له زوجُها: إنّكَ لا تستطيع أنْ تجمع الناسَ على هواكَ يا عَمّى، وإن كان الحقّ سِواه. فَبطَش به عمرُ، ووطئه وطئًا شديدًا، فقامت أختُ عمر تحجُز بينهما، فنَفَحها بيدِه فشجَّها، فلما رأت الدمَ قالت: هل تَسمع يا عمر! أرأيت كلَّ شيء بلغكَ عنّى ممّا يذكر مِنْ تَرْكِي آلهتك وكُفْرى باللّات والعزّى فهو حقّ! وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا رسول الله، فَأَتِمَّ أمركَ، واقض ما أنت قاض. فلما رأى عمرُ ذلك سُقِط فى يده[٢]، فقال لأخته: أرأيتِ ما كنت تَدْرُسين آنفًا؟ أعطيك موثقًا لا أمحُوه حتى أردَّه إليك، ولا أخونكِ فيه. فلما رأت أختُه حِرْصَهُ على الكتاب رَجَتْ أن يكون ذلك لدعوةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالت له: إنَّك نجسٌ، ولا يمسّه إلّا المطَّهرون. فقام واغتسل من الجَنابة وأعطاها مَوْثِقًا، فاطمأنّت به ودفعت إليه الصحيفة، فقرأ «طه» حتى بلغ: ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْس بِما تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[٣]. وقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[٤]. فأسلم عند ذلك، وقال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. وخَلَع الأنداد وكَفر باللّات والعُزَّى. فخرج خَبَّاب وكان داخلا فى البيت - مكبِّرًا، وقال: أَبْشِرْ بكرامة الله يا عمر! فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا أن يُعِز الله بك الإسلام، فقال عمر: دُلّونى على المنزل الذى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال له خَبّاب: هو فى الدار التى فى أصلِ الصَّفا، فأقبل عمرُ وقد بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن عمر يطلبه ليقتله، ولم يبلغْه إسلامُه. فلما انتهى عمرُ إلى الباب ليستفتح، رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم متقلِّدًا سيفه، فأشفقوا منه، فلما رآه حمزةُ وحدَه، قال: افتحُوا، فإنْ كان الله يريد بعمرَ خيرًا اتبع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وصدَّقه؛ وإن كان غير ذلك قتلناه بسيفه، ويكون قتله علينا هيِّنًا. فابتدره رجال من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يُوحى إليه، فسمع صوتَ عمر، فخرج ليس عليه رداء حتى أخذ بمجمع رداء عمرَ وقميصه، وقال له: أما والله ما أراك تنتهى يا عمر حتى يُنزل الله عزّ وجلّ بك من الزَّجْر ما أنزله بالوليد بن المُغيرة! ثم قال: «اللهمّ اهد عمرَ» فضحك عمرُ وقال: يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك محمد عبده ورسوله. فكبَّر أهل الدار تكبيرةً سمعَها مَنْ وراء الدار، والمسلمون يومئذ بضعة وأربعون رجلًا وإحدى عشرة امرأة، ثم قال عمر: يا رسول الله، نحن بالإسلام أحقّ أن نبادى منّا بالكُفر، فليظهرنّ دين الله عزّ وجلّ بمكة، فخرج عمر وجلس فى المسجد وصلى علانيةً وأظهر الإسلام، فلم يزل الدِّين عزيزًا منذ أسلم عمر رضى الله عنه.

* * *

(١) الهينمة: الصوت الخفى.

(٢) أسقط فى يده: ندم.

(٣) سورة طه ١٥، ١٦.

(٤) سورة التكوير ١ - ١٤.

وأما إسلامُ عثمانَ، فإنّه روى أن عثمانَ بنَ عفان رحمه الله قال: دخلت على جَدّتى[١] بنت عبد المطلب أعودها، فإنّى لِعندَها إذا جاء رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم يعودها، فجعلتُ أنظر إليه وقد نَشَر من شأنه حينئذ شيئًا، فأقبل علىّ فقال: ما شأنُك يا عثمان؟ فجعل لى إلى الكلام سبيلاً، فقلت: أعجبُ منك ومن مكانك فينا وفى قومك، وما يقال عليك! فقال: لا إلّه إلاّ الله. فالله يعلم أنّى اقشعْررت. ثم قال: ﴿وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكم ومَا تُوعَدُون * فَوَرَبِّ السماء والأرض إنَّه لحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[٢]، فقام، فقمتُ فى أثره، فأسلمتُ.

(١) هى البيضاء بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(٢) سورة الذاريات ٢٢، ٢٣.

obeikandl.com

مسَاوئ من ارتدّ عن الإسلام

منهم جَبَلَة بن الأيْهَم الغسانى. لما افتُتِحت الشامُ، ونظر جَبلة إلى هَدْى المسلمين ووَقارهم، أحبَّ الدخولَ فى الإسلام، فسار نحوَ المدينة إلى عمرَ بن الخطاب رحمه الله، فلما بلغ عمرَ قدومَه قال للمهاجرين: استقبِلُوه، وأظهروا تعظيمه وتبجيله، فإنه قريبُ العهد بالمُلْك، فاستقبله الناس، وأظهروا بِرّه، وأقبل جَبَلة حتى دخل على عمر رضى الله عنه.

فقرَّب مجلسَه وأدْنَاه ووَعده من نفسه خيرًا، فأسْلَم، وأقام بالمدينة. حتى إذا حضر أوانُ الموسم حجّ عمرُ رحمه الله، وخرج معه جَبَلة، فبينما هو يطوفُ بالبيت مُحرِمًا، وعليه إزاران، قد تردّى بواحدٍ[1]، واتَّزر بالآخر، إذ وطىء رجلٌ طرف إزاره، فانحلّ عنه حتى بدتْ عورتُه فغضب ووثب على الرجل فلطمه. فتعلق به الرجل وجماعة معه وانطلقوا به إلى عمر رضى الله عنه، وشهدوا عليه، فقال عمر: أقِدِ الرجل أو استوهِب [نفسك][2] منه، فقال جبلة: وكذلك هذا الدين لا يُفضَّل فيه شريفٌ على وضيع، ولا مَلِك على سُوقة! قال عمر: قال الله تعالى، وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]. إنَّ الناسَ شريفُهم ووضيعهم فى الحقّ سواء. فانصرف جَبَلة، فلمَّا جَنَّ عليه الليل، خرج فى حَشَمه وعياله؛ حتى لحقوا بأرض الشام مرتدًّا عن الإسلام.

فكتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجرّاح، فأمره أن يستتيب جَبَلة، فإن تاب وإلا ضرب عنقه. وبلغ ذلك جَبَلة، فخرج من أرض الشام حتى دخل أرض الرُّوم؛ وأتى الملك فأخبره بأمره، ورجوعه إلى النَّصْرانية، فسُرَّ الملك بقدومه، واستخلفه على مُلكه، وجعله جائز الأمر فى سلطانه، [وأقطعه حيث شاء، وأجرى عليه من النزل ما شاء وجعله من محدِّثيه وسمَّاره][4]: فأقام عنده، فلما وَلَى معاوية بن أبى سفيان بعث رجلا من الأنصار - يقال له تميم بنُ بشر[5] - إلى قيصر مَلِكِ الرُّوم فى بعض أموره.

قال تميم: فلما دخلت على قيصر أبلغته الرسالة، وجلست عنده، فحدَّثنى[6] مَلِيًّا ثم قال: هل لك فى لقاء رجلٍ من العرب من أهل بيت الملك؟ فقلت: ومَنْ هو؟ قال: جَبَلة بن الأيهم؛ قلت: إن لى فى ذلك أملًا[7]، وإنى لرجُلٌ من قومه. فبعث معى رجلًا حتى أدخلنى عليه وهو فى مجلس له يغشى

(١) ك: «بأحدهما».
(٢) تكملة يقتضيها السياق، وفى الأغانى: «فإما أن ترضى الرجل أو أقيده منك».
(٣) سورة الحجرات ١٣.
(٤) من ل.
(٥) فى خزانة الأدب: «جثامة بن مساحق الكنانى».
(٦) ل: «فجذبنى».
(٧) ك، ل: «أهلا».

العيونَ حُسنُه وكثرةُ تَصاويره[١]، مطليّة حيطانُه بماء الذهب والفِضّة، يتلألأ تلألؤًا، وحولَه نفرٌ من بَطارقة الرُّوم، فسألنى: مَنْ أنا؟ فانتسبتُ له، فقال: حيّاك الله، فإننا بنو عمّ،! ثم أمر جُلساءهُ فخرجوا من عنده، وخَلا بى يسألُنى عن العرب وأماكِنِها، فخبَّرتُه بجميع ما سألنى عنه، فبكى حتى خضَّلت لحيتَه الدموعُ، ثم أنشأ يقول:

تَنَصَّرتُ بعدَ الدِّين من عار لَطْمَةٍ[٢] ... وَمَا كانَ منها لوْ صَبَرتُ لها ضَرَر
تكنّفنى منها لَجَاجٌ ونَخْوَةٌ ... وبعت بها العين الصحيحةَ بالعَوَرْ[٣]
فيالَيتَ أمّى لم تلِدنى ولَيتَنى ... ثَوَيْتُ أسيرًا فى ربيعةَ أو مُضَرْ!
ويالَيتنى أرعَى المخاضَ بقَفْرةٍ ... ولم أُنكِر القَوْل الذّى قاله عُمَر
ويالَيتَ لى بالشام أدنى مَعيشةٍ ... أجالسُ قومى فى العَشِيّاتِ والبُكَرْ[٤]
أدِينُ بما دانوا به من شَرِيعةٍ ... وقد يجلسُ العَيْرُ الضَّجورَ على الدَّبَر

[الطويل]

قال: ثم دعا بغدائه، فلمافرغنا خرجت علينا جاريتان فى يد إحداهما بربط[٥] وفى يد الأخرى مزمارٌ، فجلسنا، ثم خرجت علينا جاريتان فى يد إحداهما جامٌ[٦] فيه مِسكٌ مسحوق، وفى يد الأخرى جامٌ مملوءٌ ماء ورد، ثم أقبل طائران كانا شبيهين بطاوسين أوتُدْرَجين[٧]، فسقطا فى الجام، واحتملا المسك بجناحيهما، فرشاهُ علينا.

وقال جَبَلة للمغنيتين. غنياانا، فغنتاه.

لمن الدارُ أقفرتْ بمعانِ ... بين أعْلى اليَرْموك فالصمّان[٨]
ذاك مغنىً لآل جفنة فى الدهـ ... ـر وحقٌّ تصرُّف الأزمان
قد أرانى هناك حقًّا مكينًا ... عند ذى التاجِ مَقْعَدى ومكانى

[الخفيف]

---

(١) ك: «وكثرة التصاوير فيه».
(٢) الأغانى والخزانة: «تنصرت الأشراف من عار لطمة».
(٣) الخزانة: «وكنت كمن باع الصحيحة بالعور».
(٤) الأغانى: «أجالس قومى ذاهب السمع والبصر».
(٥) البربط: العود (معرب).
(٦) الجام: إناء من الفضة.
(٧) التدرج: طائر.
(٨) لحسان، ديوانه ٤١٤: ومعان، بالفتح، والمحدثون يقولون بالضم: مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء. والصمان –وهى رواية ياقوت والأغانى والخزانة– من نواحى الشام بظاهر البلقاء، وفى ديوانه «الخمان»: وهى من نواحى البثنية من أرض الشام، وفى الأصلين: «المسريات» تحريف.

قال: ثم بكى حتى خضّلت دموعُه لحيتَه، ثم قال: غَنّيانى، فغنّتا:

لله دَرُّ عصابةٍ نادمتُهمْ ... يومًا بجِلَّقَ فى الزّمان الأوّلِ[(١)]
أولادُ جَفنةَ قبر أبيهمُ ... قَبْرُ ابن مارية الكريم المفضِلِ
يَسقُونِ من هبط البريصَ عليهم[(٢)] ... بردَى يصفق بالرحيق السلسل[(٣)]
يُغشَوْنَ حتى ما تَهرُّ كلابُهمْ ... لايَسألونَ عن السوّادِ المقبل
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهمْ ... شُمُّ الأنوف من الطِّراز الأوّل

[الكامل]

ثم قال لى: ما فعل ابنُ الفُرَيعة[(٤)]؟ يعنى حسّان بن ثابت. قلتُ: حىٌّ إلّا أنه كُفَّ بصرُه، فوجَد من ذلك وَجْدًا شديدًا وبكى، وقال لخادم له: انطلِق فأتنى بأربعمائة دينار، فأتاه بها فنَاوَلنيها، وقال: أوصِلْها إلى حسّان. ثم ودّعْته وخرجت حتى أتيت معاوية فأخبرتُه بجواب رسالة قَيْصر، ثم سِرْت من الشام حتى أتيت المدينةَ ولقيتُ حَسّانًا، ودفعتُ إليه الدنانير، فقال:

إن ابنَ جَفْنَةَ من بقيّة معشرٍ ... لم يَغْذُهُمْ آباؤهُم باللُّومِ
لم يَنْسنى بالشام إذْ هو رَبُّها ... يومًا ولا منتصِّرًا بالرُّوم
يُعطى الجزيلَ فما يراهُ عندَه ... إلّا كبعض عَطِيّةِ المذْمُوم
ما جئتُهُ إلّا وقرّب مجلسى ... ودعا بأفضل زادِهِ المطعومِ[(٥)]

[الكامل]

---

(١) ديوانه ٣٠٨.
(٢) البريص: نهر بدمشق.
(٣) أى ماء بردى، وهو نهر بدمشق أيضًا.
(٤) هى الفريعة، بالتصغير، بنت خالد بن خبيش، خزرجية، أدركت الإسلام وأسلمت وبايعت. الإصابة ١: ٣٢٥.
(٥) رواية الأغانى:

وأتيته يومًا فقرّب مجلسى ... وسَقَى فروّانى من الخرطوم

والخبر هناك مفصلًا فى ١٤: ٢-٧ (ساسى)، وفى الخزانة ٢: ٢٤٢-٢٤٥.

محَاسِن المفَاخَرة

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر».

وقال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنى عَلَى خَزَائنِ الأرض إنّى حفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قيل: وسمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلاً ينشد:

إنّى امرؤٌ حميرىٌّ حين تنسُبُنى ... لا مِن ربيعةَ آبائى ولا مُضَر

[البسيط]

فقال: ذلك أَلأَمُ لك وأبعَدُ من الله ورسوله!

وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا اختلف الناس فالحقُّ مع مُضَر».

وقال:

إذا مُضَرُ الحمرَاءُ كانت أُرومتى ... وقام بنصرِى خازمٌ وابنُ خازمِ[2]

عَطَسْتُ بأنفى شامخًا وتناولتْ[3] ... يدايَ الثُّريَّا قاعدًا غيرَ قائمِ

[الطويل]

شعيب بن إبراهيم، قال: حدثنى سيف بن عمر، عن علىّ بن يزيد، عن عبد الله بن الحارث، عن المطّلب بن ربيعة، قال: مرَّ العباسُ بنفر من قريش وهم يقولون: إنما مَثَل محمد صلّى الله عليه وسلّم فى أهله، كمثل نخلة نبتَتْ فى كِبا[4]. فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوَجدَ منه. وخرج حتى قام فيهم خطيبًا فقال: «أيها الناس، من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، قال: «فأنا محمد بنُ عبد الله بن عبد المطّلب، إنّ الله عزّ وجلّ خلق خَلْقَه، فجعلنى من خير خلقِه، ثم جعل الخلق الذين أنا منهم فرقتين، فجعلنى من خير الفرقتين، ثم جعلهم شعوبًا، فجعلنى من خيرهم شَعْبًا، ثم جعلهم بيوتًا فجعلنى من خيرهم بيتًا، فأنا خيرُكم بيتًا وخيركم والدًا، وإنّى مُباهٍ! قم يا عبّاس». فقام عن يمينه، ثم قال: «قم يا سعد[5]»، فقام عن يساره، ثم قال: «ليقرّب امرؤ من الناس عمًّا مِثل هذا، أو خالاً مثل هذا»!

* * *

(١) سورة يوسف ٥٥.

(٢) لخزيمة بن خازم، الأغانى ٥: ٥٣ (ساسى)؛ ورواية البيت الأول فيه:

إذا كانتِ الأحرارُ أصلى ومَنْصبى ... وَدافَعَ ضيمى خازمٌ وابن خازن

(٣) الأغانى «بأنف شامخ».

(٤) الكبا: الكناسة.

(٥) هو سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة.

حدثنا سِنانُ بنُ الحَسَن التُّسْتُرِىّ قال: حدثنا إسماعيل بن مِهران اليشكرىّ، قال؛ حدثنا أحمد بن محمد، عن أبان بن عثمان، عن عِكرِمة، عن ابن عبَّاس، عن علىّ بن أبى طالب، قال: لمّا أُمِرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه ومعه أبو بكر - وكان أبو بكر عالمًا بأنساب العرب - فدفعْنا[١] إلى مجلس من مجالس العرب، عليهم الوَقار والسكينة، فتقدم أبو بكر وسلَّم عليهم، فردُّوا عليه [السلام][٢]، فقال: مِمّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: أمن هامتِها، أم من لهازمها[٣]؟ قالوا بل من هَامَتها العُظْمَى، قال: وأىّ هامَاتِها؟ قالوا: ذُهْل، قال: أذُهْل الأكبر أم ذُهْل الأصغر؟ قالوا: بل ذُهل الأكبر، قال: أمنكم عوْف الذى كان يقول:[٤] «لا حُرّ بوَادِى عَوْف»؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم بسطام بن قَيْس صاحبُ اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم جَسَّاس بن مرّة حامى الذِّمار ومانعُ الجار؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم المُزدلِف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أخوال الملوك من كِندة؟ قالوا: لا. قال: فأصهارُ الملوك من لَخْم؟ قالوا: لا. قال: فلستُمْ من ذُهْل الأكبر إذن، أنتم ذُهْل الأصغر!

فقام إليه غلام أعرابىّ حين بَقَل وجهُه[٥]، فأخذ بزمام ناقتهِ ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على ناقته يسمع مخاطبَتَه، فقال:

لَنا عَلَى من سألَنَا أن نسألَهْ[٦] والعبْءُ لَنْ تعرفَه أو تَحْمِلَهْ

[الرجز]

يا هذا، إنك سألتنا أىَّ مسألة شئت فلم نكتمك شيئًا، فأخبرنا ممّن أنت؟ فقال: أبو بكر: من قريش؟ قال: بخٍ بخٍ! أهل الشرف والرياسة! فأخْبرنى من أىِّ قريشٍ أنت؟ قال: من تميم بن مُرّة، قال: أفمنكم قُصَىُّ بنُ كلاب الذى جمّع القبائل من فِهر، فكان يقال له: مجمِّعًا؟ قال أبو بكر: لا. قال: أفمنكم هاشم الّذى قال فيه الشاعر:

عَمرو العُلا هَشَم الثَّريدَ لقومه ورجالُ مكّة مُسْنِتُون عجافُ![٧]

[الكامل]

قال أبو بكر: لا؛ قال: أفمنكم شَيبةُ الحمد؛ الذى كان وجهه كالقمر يضىء ليلةَ الظُّلْمة الداجنة، مطعم طير السماء؟ قال: لا. قال: أفمِن المُفيضين[٨] بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفمِن

---

(١) ك: «فوقفنا على مجلس».
(٢) من ك.
(٣) الهامة: الرأس، واللهزمة: عظم نأتى فى اللحى تحت الأذن؛ والكلام على التمثيل.
(٤) ل: «يقال».
(٥) بقل وجه الغلام؛ إذا ظهر شعره وفى مجمع الأمثال: «يقال له دغفل».
(٦) مجمع الأمثال للميدانى: «إن على سائلنا».
(٧) أمالى المرتضى ٢: ٢٦٩، ونسبه إلى ابن الزبعرى.
(٨) أفاض: اندفع؛ وكانوا يفيضون من عرفات إلى مكة بالتلبية.

أهل الرِّفادة[١] أنتَ؟ قال: لا. قال: أفمِن أهل السِّقاية أنت؟. قال: لا. قال: أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال: لا. قال: أما والله لو شئت لأخبرتُك أنّك لست من أشراف قريش! فاجتذب أبو بكر زِمام ناقته منه كهيئة المُغضب، فقال الأعرابيّ:

صادف دَرَّ السيل دَرَّ يدفَعُهْ فى هَضبةٍ تَرْفَعُهُ وتضعُهْ

[الرجز]

فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم. قال علىّ: فقلت: يا أبا بكر، إنك لقد وقعت من هذا الأعرابيّ على باقعة! فقال: أجل يا أبا الحسن، ما من طامّة إلا فوقَها طامّة وإنّ البلاءِ مُوكلٌ بالمنطق[٢].

(١) الرفادة: شىء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية، فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته، فيجمعون من ذلك مالاً عظيمًا أيام الموسم فيشترون به للحجاج الطعام؛ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام الحج، وكانت الرفادة والسقاية لبنى هاشم، وأوّل من قام بها هاشم بن عبد مناف، وكانت السدانة واللواء لبنى عبد الدار.

(٢) المثل والخبر فى مجمع الأمثال ٤: ١٧؛ ١٦.

محاسِن كلام الحَسن بن على

رضى الله عنه

قيل: وأتى الحسنُ بن علىّ رضى الله عنهما معاوية بن أبى سفيان، وقد سبقه ابن عبّاس، فأمر معاوية فأنزل، فبينا معاويةُ مع عمرو بن العاص ومرْوانِ بن الحَكَم، وزياد بن أبى سفيان يتحاورُون فى قديمهم وحديثهم ومجدهم، فقال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حضَرَكم الحسنُ بن علىّ وعبدُ الله بن عبَّاس لقصّرَا من أعنّتِكما ما طال. فقال زياد: وكيف ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ ما يقومان لمروان بن الحكم فى غرْب[1] منطقه، ولا لنا فى بَوادِخِنا، فابعث إليهما فى غدٍ حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال: هكذا، فابعث إليهما فى غدٍ.

فبعث إليهما معاويةُ ابنَه يزيد، فأتَياه ودخلا عليه، وبدأ معاويةُ فقال: إنى أُجِلُّكما وأرفع قَدْرَكما عن المسامرة بالليل، ولا سيّما أنتَ يا أبا محمد، فإنك ابنُ رسول الله وسيِّد شباب أهل الجنّة. فتَشكّرَا له[2].

فلما استَويا فى مجلسهما، وعلم عمرو أن الحدَّة ستقع به، قال: والله لابُدَّ أن أقول، فإنْ قَهَرتُ فسبيلُ ذلك، وإن قُهِرتُ أكون قد ابتدأت. فقال: يا حَسَنُ، إنا تفاوضنا فقلنا: إن رجالَ بنى أميّة أَصْبَرُ عند اللقاء وأَمْضى فى الوَغَى، وأوفَى عهدًا، وأكرمُ خِيما، وأمنَعُ لما وراء ظهورهم من بنى عبد المطلب!

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك، وقد قارعْناكم فغلبناكم، وحاربْناكم فملكْناكم فإن شئنا عَفَوْنا، وإن شئنا بَطَشْنا!

ثم تكلّم زياد فقال: ما ينبغى لهم أن ينكروا الفضل لأهلِه، ويجحدوا الخيرَ فى مظانّه، نحنُ أهلُ الحَمْلة فى الحروب، ولنا الفضلُ على سائرِ الناس قديمًا وحديثًا.

فتكلّم الحسن رضى الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمُتَ الرجلُ عند إيراد الحجَّة، ولكنّ من الإفك أنْ ينطقَ الرجل بالخَنا[3]، ويصوِّر الباطل بصورةِ الحقّ. يا عمرو، افتخارًا بالكَذِب وجَراءَة على الإفك! مازلتُ أعرفُ مَثالِبَك الخبيثة، أبديها مرّةً وأمسِك عنها أخرى، فتأبى إلّا انهماكًا فى الضلالة. أتذكر مصابيحَ الدُّجى، وأعلام الهدى، وفُرسانَ الطِّراد، وحُتوفَ الأقران، وأبناءَ الطِّعان وربيع الضِّيفان، ومعدن النبوّة ومهبط العلم! وزعمتم أنّكم أحمَى لما وراء ظهوركم، وقد تبيَّن ذلك

(١) الغرب هنا: حدّة اللسان، وقوة العارضة.

(٢) التشكر والشكر بمعنى؛ وفى المحاسن والأضداد: «فتشكرا له».

(٣) الخنا: القبيح من الكلام.

يوم بدر حين نَكَصَت الأبطالُ وتساوَرَت الأقران، واقتحمتِ اللّيوث، واعتركت المنيَّة، وقامت رحاها على قطبها، وافترّتْ، عن نابِها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالَكم، ومنّ النبىّ ﷺ عَلى ذراريِّكم؛ فكنتم لَعمرى فى هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بنى عبد المطلب!

ثم قال: وأمّا أنت يا مرْوان، فما أنتَ والإكثار فى قريش! وأنت طليق، وأبوك طَريد، يتقلَّب من خزاية إلى سوءة، ولقد جيء بك إلى أمير المؤمنين [يوم الجمل][1] فلمّا رأيت الضّرغام قد دَمِيَتْ براثنُه واشتبكت أنيابُه؛ كنت كما قال:

ليثٌ إذا سمع الليوث زئيره بصْبَصْن ثم قَذَفْن بالأبعارِ[2]

[الكامل]

- ويُروَى: «رَمَيْن بالأبعار»[3].

فلمّا مَنّ عليك بالعفو، وأرخى خناقَك بعد ما ضاق عليك، وغَصِصتَ بريقك؛ لم تقعد منّا مقعد أهلِ الشكر، ولكن تساوَيْنا وتجارينا، ونحن ممن لا يدركنا عارٌ، ولا يَلحَقُنا خِزاية. ثم التفتَ إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشًا! لا أعرف لك فيها أديمًا صحيحًا، ولا فرْعًا نابتًا[4]، ولا قديمًا ثابتًا، ولا مَنْبتًا كريمًا، بل كانت أمّك بَغِيًّا، تداوَلَها رجالُ قريش، وفُجّار العرب، فلمّا وُلِدْت لم تعرف لك العرب والدًا، فادّعاك هذا - يعنى معاوية - بعد ممات أبيه، مالك افتخار[5]! تكفيك سُمَيّة، ويكفينا رسول الله ﷺ. وأبى علىّ بن أبى طالب سيّد المؤمنين الذى لم يرتدّ على عَقِبَيْه، وعَمّىَّ حمزةُ سيد الشهداء وجعفر الطَّيّار، وأنا وأخى سيِّدا شباب أهل الجنة. ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يا بن العمّ، إنما هى بُغاثُ الطير انقضّ عليها أجدَل[6]. فأراد ابنُ عبّاس أن لا يتكلّم، فأقسم عليه معاوية أن يكفّ فكفّ، ثم خرجا.

فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجَّته[7] دحِضتْ، وتكلّم مروانُ لولا أنّه نكَص، ثم التفت إلى زياد، وقال: ما دعاك إلى محاورته! ما كنت إلّا كالحجل فى كفّ البازى. فقال عمرو: ألا رَميت من ورائنا! قال معاوية: إذن كنتُ شريكَكُم فى الجهل! أأفاخر رجلًا رسول الله جدُّه، وهو سيّد من مضَى ومَنْ بَقِىَ، وأمّه فاطمة الزهراء سيِّدة نساء العالمين! ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهلُ الشام لهى السوءة السوآء، فقال عمرو: لقد أبقى عليك، ولكنّه طَحنَ مروانَ وزيادًا طَحْن الرَّحا بثِفالِها[8]، ووطئها وطء البازل القُرادَ بمنسمِه[9]، فقال زياد: قد والله فعل، ولكنّ معاوية يأبى

---

(١) تكملة من المحاسن والأضداد.

(٢) أى تحرك ذنبهن خوفًا.

(٣) وهى رواية المحاسن والأضداد.

(٤) ك: «ثابتًا».

(٥) المحاسن والأضداد: «فمالك والافتخار».

(٦) الأجدل: الصقر.

(٧) دحضت الحجة: بطلت.

(٨) فى اللسان «الثفال، بالكسر: الجلد الذى يبسط تحت الرحا باليد ليقى الطحين من التراب، وفى حديث على: وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها؛ هو من ذلك؛ والمعنى أنها تقدهم دق الرحا للحب، إذا كانت مثفلة، ولا تثفل، إلا عند الطحن».

(٩) البازل: البعير إذا دخل فى التاسعة، والمنسم: الخف؛ وهو للبعير بمنزلة الظفر للإنسان.

إلّا الإغراء بيننا وبينهم. لا جَرَم والله! لا شهدتُ مجلسًا يكونان فيه إلّا كنتُ معهما على مَنْ فاخَرهما.

فخلا ابنُ عباس بالحسن، فقبَّل بين عينيه، وقال: أفديك يا بنَ عمِّ! والله مازال بَحرُكَ يَزْخَر وأنت تصول؛ حتّى شفيتنى من أولاد البَغايا.

* * *

ثم إنّ الحسن رضى الله عنه غاب أيامًا؛ ثم رجع حتى دخلَ على معاوية وعند عبد الله بنُ الزُّبَير. فقال معاوية: يا أبا محمد، إنّى أظنك تَعِبًا نصبًا، فَأْتِ المنزلَ فأرِح نَفْسَك، فيه. فقام الحسن، فلمّا خرج قال معاوية لعبد الله بن الزبير: لو افتخرت على الحسن فإنّك ابنُ حَوارىِّ رسولِ الله ﷺ وابنُ عمّته، ولأبيك فى الإسلام نصيب وافر. فقال ابنُ الزبير: أنا له، فرجع وهو يطلبُ ليلته الحجج.

فلما أصبح دخلَ على معاوية، وجاء الحسنُ فحيّاه معاوية وسأله عن مبيتِه، فقال: خير مَبيت، وأكرم مُسْتَفاض فلما استوى فى مجلسه، قال ابنُ الزبير: لولا أنّك خوَّار فى الحرب، غيرُ مِقْدام ما سلّمت لمعاوية الأمر، وكنتَ لا تحتاج إلى اختراق السهود، وقَطْع المفاوز تطلب معروفه، وتقوم ببابه، وكنت حَرِيًّا ألّا تفعل ذلك، وأنت ابنُ على فى بأسه ونجْدته، فما أدرى ما الذى حملكَ على ذلك! أضَعْفُ رأىٍ، أم وَهَنٌ نَجيزة! فما أظنّ لك مخرجًا من هاتين الخَلَّتيْن. ما والله لو استجمع لى ما استجمع لك لعلمتَ أنّى ابنُ الزبير، وأنّى لا أنكُصُ عن الأبطال، وكيف لا أكون كذلك، وجدَّتى صَفِيَّةُ بنتُ عبد المطّلب، وأبى الزبير حوارىُّ رسول الله ﷺ، وأشدُّ الناس بأْسًا، وأكرمُهُم حسَبًا فى الجاهلية، وأطوَعُهم لرسول الله ﷺ!

فالتفت إليه الحسن وقال: أما والله لولا أنّ بنى أميّة تنسبُنى إلى العجز عن المقال لكففتُ عنك تهاوُنًا، ولكن سأبيّن ذلك لِتَعلم أنّى لستُ بالعَىِّ ولا الكَليلِ اللسان. إيّاى تُعيِّر، وعلىَّ تفتخر، ولم يكن لجَدك بيت فى الجاهلية ولا مَكرُمة، فزُوِّجَتْه[1] جدّتى صفيّة بنتُ عبد المطلب، فبذخ على جميع العرب بها، وشَرُف بمكانها! فكيف تُفاخُر مَنْ هو من القلادة واسطتها، ومن الأشراف سادتها! نحن أكرمُ أهل الأرض زَنْدًا؛ لنا الشرف الثاقب، والكرم الغالب. ثم تَزْعُم أنّى سلّمت الأمر، فكيف يكون ذلك – ويحك – كذلك، وأنا ابن أشجَع العرب، وقد ولدتنى فاطمةُ سيِّدة نساءِ العالمين وخير الإماء! لم أفعل لك – وَيْحَك – جُبنًا ولا ضعفًا! ولكنّه بايَعَنى مثلك وهو يطلبنى ببرّه، ويداجينى المودّة، ولم أثقْ بنصْرته، لأنّكم أهلُ بيتِ غَدْر، وكيف لا تكونُ كما أقولُ، وقد بايع أبوك أميرَ المؤمنين، ثم نكثَ بيْعتَهُ، ونكَص عَلَى عَقِبيه، واختدعَ حَشِيةً من حَشَايا رسول الله ﷺ ليُضِلَّ بها الناس، فلمّا دَلَفَ نحو الأعِنّة؛ ورأى بَريقَ الأسنّة، قتل مَضيعةً[2] لا ناصرَ له، وأتَى بك أسيرًا قد وطئتك الكُماةُ بأظلافها، والخيلُ بَسَنابكها، واعتلاك الأشْتر، فَعَصِصْتَ بريقك، وأقْعَيْتَ على عقبيك

(١) ك، ل: «فزوجه». وفى المحاسن والأضداد: «ولم يك لجدك فى الجاهلية مكرمة إلا تزوجه جدتى صفية».

(٢) المحاسن والأضداد: «بمضيعة».

كالكلْب إذا احتوشَتْه اللُّيُوث! فنحن – وَيْحك – نورُ البلادِ وَأَمْلاكُها، وبنا تفْخر الأمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة؛ أتصول وأنت تختدع النساء، ثم تفتخر على بنى الأنبياء! لم تزل الأقاويلُ منّا مقْبولةً، وعليك وعلى أبيك مردودة. دخل الناس فى دين جَدِّى طائعين وكارهين، ثم بايعوا أميرَ المؤمنين رضى الله عنه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكثَا البيعة، وخدعا عُرْسَ رسول الله ﷺ، فقُتِل أبوك وطلحةُ، وأُتِى بك أسيرًا، فَبَصْبَصْتَ بذَنبك، وناشدته الرّحم ألّا يقتُلَك، فعفا عنكَ، فأنت عَتَاقَةُ أبى، وأنا سيِّدُك وسيِّد أبيك، فَذُقْ وَبَال أمرِك!.

فقال ابن الزبير: اعذر يا أبا محمد؛ فإنّما حمَلنى على محاوَرتك هذا، وأحَبَّ الإغراء بيننا، فهلّا إذا جهِلتُ أمسكتَ عنّى، فإنكم أهلُ بيتٍ سجيّتكم الحِلم والعفو. فقال الحسن: يا معاوية، انظر هل أَكِيعُ[١] عن محاورة أحد؟ ويحك! أتدرى من إىِّ شجرة أنا؟ وإلى من أنتمى؟ انتَهِ قبل أن أَسِمَك بميسمٍ تتحدّث به الرُّكبان، فى الآفاق والبلدان.

فقال ابن الزُّبير: هو لذلك أهل.

فقال معاوية: أما إنّه قد شفا بلابَل صَدرِى منك، ورَمَى مَقْتَلَك، فصرتَ كالحَجَل فى كفِّ البازِى يتلاعب بك كيفَ أراد! فلا أَراك تفتخرُ على أحدٍ بعدها[٢]

* * *

وذكروا أنّ الحسن بن علىّ دخل على معاوية، فقال متمثّلًا:

[الكامل]

فيمَ الكلامُ وقد سبقتَ مبرِّزًا ... سَبْقَ الجواد من المَدى والمِقْوَسِ[٣]

فقال معاوية: إيّاى تعنى؟ أما والله لأنبئنَّك بما يَعرفُه قلبُك، ولا ينكره جلساؤك. أنا ابن بَطْحاء مكة، أنا ابن أجوَدِها جُودًا، وأكرمِها جُدودًا، وأوفاها عهودًا، أنا ابن من ساد قريشًا ناشئاً وكَهْلًا. فقال الحسن: أجَلْ، إيّاك أعنى؟ أفعلىّ تفتخر يا معاوية؟ أنا ابن ماء السماء، وعروق الثَّرَى، وابن مَنْ ساد أهلِ الدنيا، بالحسب الثابت[٤]، والشرف الفائق، والقديم السابق. أنا ابن مَنْ رضاه رضا الرحمن، وسُخْطُه سُخط الرحمن. فهل لك أبٌ كأبى، وقديمٌ كقديمى؟ فإن قلت: لا، تُغلَب، وإن قلتَ: نعم، تكذّب. فقال معاوية: أقول: لا، تصديقًا لقولك؛ فقال الحسن:

الحقُّ أبلَجُ ما تَخُونُ سَبيلُهُ ... والصدقُ يَعرفُه ذوو الألبابِ[٥]

[الكامل]

ما تخون؛ أى ما تخون مَنْ ملَكها.

* * *

---

(١) أكيع: أجبن وأخاف.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٨–١٤٤.

(٣) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «المقيس» والمقوس: الحبل الذى تصف عليه الخيل عند السباق.

(٤) ك: «الثاقب». (٥) المحاسن والأضداد: «والحق».

قال: وقال معاوية ذات يوم وعندَه أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبرونى بخير الناس أبًا وأمًّا، وعمًّا وعمَّةً، وخالًا وخالةً، وجدًّا وجدّة.

فقام مالك بنُ العجلان، فأومَأ إلى الحسن، فقال: هاهو ذا؛ أبوه عليُّ بنُ أبى طالب رضوان الله عليه، وأمُّه فاطمةُ بنْتُ رسول الله ﷺ، وعمُّه جعفر الطيّار فى الجِنان، وعمَّتُه أمُّ هانئ بنت أبى طالب، وخالهُ القاسم بنُ رسول الله ﷺ، وخالته بنت رسول الله ﷺ زينب، وجدُّه رسول الله ﷺ، وجدَّتُه خديجة بنت خُوَيْلد رضى الله عنها. فسكت القوم، ونهَضَ الحسن، فأقبل عَمرو بن العاص على مالك، فقال: أحُبُّ بنى هاشم حَمَلَك على أن تكلمتَ بالباطل؟ فقال ابن العجلان: ما قلتُ إلّا حقًّا، وما أحدٌ من الناس يَطلبُ مرضاةَ مخلوق بمعصية الخالق، إلّا لم يُعْطَ أمنيَّتَهُ فى دنياه، وخُتِم له بالشقاء فى آخرته. بنو هاشم أنضَرُهم عُودًا[١]، وأوراهم زَنْدًا، كذلك يا معاوية؟ قال: اللهمّ نعم[٢].

* * *

قيل: واستأذن الحسنُ بنُ علىّ رضى الله عنه على معاوية، وعنده عبد الله بن جعفر وعَمرو بنُ العاص، فأذن له، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الفَهُّ[٣] العيىُّ الذى كان بين لحيَيه عُقْلة[٤]. فقال عبد الله بن جعفر: مَهْ؟ فو الله لقد رُمت صخرةً مُلْمَلَمة[٥] تنحطّ عنها السُّيول، وتقصُر دونها الوُعول، ولا تبلُغها السِّهام، فإيّاك والحسَن إيّاك؛ فإنّك لا تزال راتعًا فى لحم رجل من قريش؛ ولقد رميت فما بَرِح سهمُك، وقدحْتَ فما أورَى زندُك.

فسمع الحسن الكلَام، فلمّا أخذ الناسُ مجالسهم، قال: يا معاوية، لا يزال عندك عبدٌ راتعًا فى لحوم الناس؟ أمَا والله لو شئت ليكوننّ بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتحرَجُ منه الصدور، ثم أنشأ يقول:

أَتأمرُ يا معاوىَ عَبْد سَهمٍ ... بِشَتْمِى والمَلَا منَّا شُهودُ؟
إذا أَخَذتْ مجالسَها قريشٌ ... فقد علمتْ قريشٌ ما تريد
قَصَدْتَ إلىّ تشتِمُنى سَفاهًا ... لِضَغْنٍ ما يزولُ وما يَبيدُ
فما لَكَ من أب كأبى تُسامِى ... به مَنْ قدْ تسامِى أو تكيدُ[٦]
ولا جَدٌّ كجدّى يا بن هندٍ ... رسولُ الله إن ذُكر الجدُودُ
ولا أُمٌّ كأُمِّى من قريشٍ ... إذا ما يحصُل الحسبُ التليدُ[٧]
فما مَثلى تَهكُّم يابن هندٍ ... ولا مثلى تُجاريهِ العبيدُ[٨]

---

(١) ساقطة من ك.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١: ١٤٥، ١٤٦.
(٣) ك: «الأفمى»، المحاسن والأضداد: «الفهه».
(٤) العقلة: ما يعقل به كالقيد وفى ط: «عبلة».
(٥) ململمة، أى مستديرة.
(٦) المحاسن والأضداد: «فهل لك من أب».
(٧) المحاسن والأضداد: «إذا ما حصل».
(٨) كذا فى ل، وفى ك: «تجاريه»، وفى المحاسن والأضداد: «ينهنهه».

فمهلًا لا تَهِجْ منا أمورًا يشيبُ لهولها الطِّفلُ الوليدُ[١]
[الوافر]

* * *

وذكروا أنّ عَمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلىّ الحسن بن علىّ؛ فمُرْه أن يخطب على المنبر، فلعلّه يَحصَر[٢] فيكون ذلك ممّا نُعيِّره به. فبعث إليه معاوية، فأصعده المنبر وقد جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأيُّها الناس؛ من عَرَفنى فأنا الذى يُعْرَفُ، ومَنْ لم يعرفنى فأنا الحسن بنُ علىٍّ بن أبى طالب، ابن عمّ النبى ﷺ، أنا ابن البشير النذير، السِّرَاج المنير، أنا ابن مَنْ بُعِث رحمةً للعالمين، وسخطًا على الكافرين، أنا ابنُ من بُعث إلى الجنّ والإنس، أنا ابن المُستجاب الدَّعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابنُ أوّل من يَنْفُضُ رأسَه من التراب، أنا ابنُ أوّل من يَقْرَعُ بابَ الجنة، أنا ابنُ من قاتلتْ معه الملائكة، ونُصِرَ بالرُّعب من مسيرة شهر.

فافتنّ[٣] فى هذا الكلام، ولم يزل حتى أظلمَت الدنيا على معاوية، فقال: يا حسن، قد كنت ترجو أن تكون خليفة، ولست هناك؟ فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ، وعمِل بطاعة الله، وليس الخليفة من دان بالجَوْر وعَطَّل السّنَن، واتّخذ الدنيا أبًا وأمًّا، ولكن ذاك مَلِك أصاب مُلْكًا يمتّع به قليلًا، وكان قد انقطع عنه واستعجَل لذّتَه وبقيتْ عليه تَبعَتُه، فكان كما قال الله جلّ وعزّ: ﴿وإنْ أدرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكُمْ وَمَتَاعٌ إلى حين﴾[٤]. ثم انصرف، فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلا هَتْكِى، ما كان أهل الشام يَرَوْن أنّ أحدًا مِثلى حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا[٥].

* * *

قيل: وقَدِم الحسنُ بنُ علىّ رضوان الله عليه على معاوية، فلما دخل عليه، وجَدَ عنده عَمرو بن العاص، ومَرْوَان بن الحكم، والمغيرة بن شُعبة، وصناديدَ قومِه، ووجوه اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريره، وأقبلَ عليه بوجهه يريه السرور بقدَمِه، فلمّا نظر مروان إلى ذلك حسَدَه، وكان معاوية قال لهما: لا تحاورا هذين الرجلين فلقد قلّداكم العار، وفضحاكم عند أهل الشام- يعنى الحسن بنَ علىٍّ وعبد الله بنَ عباس رضى الله عنهما- فقال مروان: يا حسنُ لولا حلمُ أمير المؤمنين؛ وما قد بَنَى له آباؤه الكرام من المجد والعَلا؛ ما أقعدك هذا المقْعَد، ولَقَتَلك وأنت لهذا مستوجِبٌ، بقوْدِك الجماهير، فلمّا أحسستَ بنا[٦]، وعلمت[٧] أن لا طاقة لك بفرسان أهل

---

(١) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ك، ل: «يشيب لها معاوية الوليد» والخبر فى المحاسن والأضداد ١٤٦، ١٤٧.
(٢) يحصر: يعيا عن الكلام.
(٣) المحاسن والأضداد: «فامعن».
(٤) سورة الأنبياء ١١١.
(٥) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٤٧، ١٤٩.
(٦) المحاسن والأضداد: «فلما قاومتنا».
(٧) ك، ل: «علمت» بدون واو، وما أثبته من المحاسن والأضداد.

الشام وصناديد بنى أمية، أذعَنْت بالطاعة، واحتجرْتَ بالبيعة، وبعثتَ تطلب الأمان. أما والله لولا تلك لأريق دَمُك، وعَلِمت أنّا نُعْطى السيوفَ حَقَّها عند الوَغَى. فاحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه، ثم صنع بك ما ترى. فنظر إليه الحسن فقال: ويحك يا مروان؟ لقد تقلّدتَ مقاليدَ العار فى الحروب عند مشاهَدتها، والمخاذَلةِ عند مخالطتها. نحن - هَبلَتْك الهوابل[١] - لنا الحجَجُ البوالغ؟ ولنا - إن شَكرتُم - عليكم النِّعم السوابغ، ندعوكم إلى النَّجاة وتدعوننا إلى النار؛ فشتّان ما بين المنزلتين! تفخر ببنى أميّة، وتزعم أنهم صُبُرٌ فى الحروب، أُسْدٌ عند اللقاء، ثكلتْك أمّك! أولئك البَهاليل السادة، والحُماة الذادة، والكرام القادة، بنو عبد المطّلب! أما والله لقد رأيتهم وجميع مَنْ فى هذا البيت ما هالتْهم الأهوال، ولم يحيدُوا عن الأبطال، كاللُّيوث الضارية الباسلة الحَنِقة، فعندها ولَّيْتَ هاربًا وأُخِذْتَ أسيرًا، فقَلّدت قومَك العار، لأنّك فى الحروب خَوَّار. أيراق دمي[٢] زعمتَ! أفلا أرَقْتَ دَم من وَثَبَ على عثمان فى الدار، فَذَبحه كما يُذْبَحُ الجمل، وأنت تَثْغُو ثغاء النَّعجة، وتنادى بالويْل والثُّبور كالأمَة اللكْعَاء! ألا دفعت عنه بيدٍ[٣]، أو ناضَلْتَ عنه بسهْم! لقد ارتعدت فرائصُك وغَشِى بَصَرُك، فاستغثتَ بى كما يستغيث العبدُ بربِّه، فأنجيتُك من القتل، ومنعتُك منه، ثم تحثّ معاوية على قتلى، ولو رام[٤] ذلك معك لذُبح كما ذُبح ابن عفان. أنت معه أقصرُ يدًا، وأضيقُ باعًا، وأجبن قلبًا من أن تَجسُر على ذلك. ثم تزعم أنّى ابتليت بحِلْم معاوية؛ أما والله لهو أعرفُ بشأنه، وأشكَرُ لما ولّيناه هذا الأمر، فمتى بدالُه فلا يُغْضِينّ جفنه على القذَى معك، فو الله لأعقّبن أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها، وتُستأصل فرسانها، ثم لا ينفعك عند ذلك الهرب والرَّوَغان، ولا يردّ عنك الطلب تدرّعُك بالكلام[٥]. فنحن ممن لا يُجهل؛ آباؤنا القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار، انطِق إن كنت صادقًا. فقال عمرو: يَنطقُ بالخنَا وتنطق بالصدق. ثم أنشأ يقول:

قد يَضرُطُ العَيرُ والمكواةُ تأخذُهُ ... لا يضرُطُ العَيرُ والمكواةُ فى النارِ[٦]

ذق وبالَ امرِك يا مروان!

وأقبل عليه معاويةُ فقال: قد كنتُ نهيتُك عن هذا الرجل، وأنت تأبى إلّا انهماكًا فيما لا يَعنيك. اربَعْ على نفسك[٧]؛ فليس أبوك كأبيه، ولا أنت مِثله، أنت ابن الطريد الشّريد، وهو ابن رسول الله ﷺ، الكريم؛ ولكن رُبَّ باحثٍ عن حَتْفه، وحافرٍ عن مُدْيَته.

فقال مروان: ارمِ من دون بَيْضَتِك، وقم بحجّة عشيرتك. ثم قال لعمرو: طَعَنَك أبوه، فَوَقَيْت نفسَك بخصييك، فلذلك تحذرُه. وقام مغضبًا.

---

(١) ك والمحاسن والأضداد: «أمك».

(٢) المحاسن والأضداد: «اتهريق».

(٣) المحاسن والأضداد: «بحرب».

(٤) كذا فى المحاسن والأضداد وفى ط: «ألورام».

(٥) ط: «الكلام» وفى المحاسن والأضداد: ولا تنتفع بتدريجك الكلام».

(٦) مثل، وأول من قاله عرفطة بن عرفجة الهذلى، وانظر مجمع الأمثال ٢ : ٩٥.

(٧) يقال أربع عليك أو على نفسك أو على ظلعك، أى توقف.

فقال معاوية: لا تُجاور البحورَ فَتَغْمُرك، ولا الجبالَ فَتَبْهَرَك[١] واسترحْ من الاعتذار[٢].

* * *

قيل: ولقى عمرُو بنُ العاص الحسَنَ بنَ عليّ رحمه الله فى الطَّواف، فقال: يا حسنُ، أزعمتَ أنَّ الدِّين لا يقوم إلّا بك وبأبيك! فقد رأيتَ الله جلّ وعزّ أقامه بمعاوية فجعله راسيا بعد مَيله، وبيّنًا بعد خَفائه. أفرضِىَ الله قتلَ عثمان! أم من الحقّ أن تَدورَ بالبيت كما يدورُ الجمل بالطَّحين، عليك ثياب كِفرقِيء البيض[٣]، وأنت قاتلُ عثمان! والله إنّهُ لألمّ للشَّعَث، وأسهل للوَعث، أن يوردَك معاوية حِياضَ أبيك. فقال الحسن عليه السلام: أنّ لأهل النار علامات يُعْرَفون بها، وهى الإلحاد لأولياء الله، والمُوالاة لأعداء الله؛ والله إنّك لتَعْلم أنّ عليًّا رضى الله عنه لم يتريَّبْ فى الأمر، ولم يشكَّ فى الله طرفة عين، وأيم الله لتنتهينَّ يابن أم عمرو أو لأقرعَنَّ جبينك بكلام تبقى سَمَتُهُ عليك ما حَييت! فإيَّاك والإبراز علىّ، فإنّى من قد عرفت. لست بضعيف الغَمْزة، ولا بهَشّ المُشاشة[٤]، ولا بمِرىء المَأْكَلة، وإنى من قريش كأوسَط القِلادة، يُعْرَف حَسَبى[٥]، ولا أدْعى لغير أبى، وقد تحاكمتْ فيك رجال قريش، فغلب عليك ألأمهم نسبًا، وأظهرهُم لعنة، فإيّاك عنّى؛ فإنك رِجْس، وإنّما نحن بيت الطّهارة، أذهب الله عنا الرِّجس وطهَّرنَا تطهيرًا[٦]!

* * *

قيل: واجتمع الحسن بنُ علىّ وعمروُ بن العاص، فقال الحسن: قد علمتْ قريش بأسرها أنّى منها فى عزّ أرومتها، لم أطبَع على ضَعف، ولم أعكَس على خَسْف، أُعرَف بشبَهى[٧]، وأُدْعَى لأبى.

فقال عمرو: قد علمتْ قريش أنك من أقلّها عَقْلًا، وأكثرها جهلًا وإنّ فيك خصالًا لو لم يكن فيك إلّا واحدة منهنّ لشمِلك خِزْيُها كما شمِل البياضُ الحالك. لعمرُ الله لتنتهينّ عمّا أراك تصنع، أو لأكبسنّ لك حَافَةً كجِلد العائط[٨]، أرميك من خَلَلها بأحرّ من وقع الأشافى[٩]، أعرُك منها أديمَك عَرْك السَّلْعة[١٠]، فإنك طالما ركِبتَ صعبَ المنحدَر، ونزلتَ فى أعراض الوَعر، التماسًا للفُرْقة، وإرصادًا للفتنة، ولن يزيدك الله فيه إلّا فظاعة.

---

(١) المحاسن والأضداد: «فتقهرك».

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٥٠، ١٥١.

(٣) الغرقىء: القشرة الملتزقة ببياض البيض.

(٤) المشاشة: رأى العظم اللين الذى يمكن مضغه، يقال: هو هش المشاش؛ أى رخو، وهو كلام على الذم.

(٥) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ك، ل: «حسبهم».

(٦) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٥١.

(٧) المحاسن والأضداد: «ينسبى».

(٨) العائط: الناقة التى لا تحمل، وفى المحاسن والأضداد: كجلد العائط إذا اعتاطت رحمها».

(٩) الإشفى: المثقب،وجمعه الأشافى، وفى ك: «الأثافى».

(١٠) السلعة: غدة تظهر بين الجلد واللحم إذا غمزت باليد تحركت.

فقال الحسن عليه السلام: أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتَعملُ برأيك ما سلكت فَجَّ قصدٍ، ولا حَلَلْتَ رابية مَجْدٍ، وأيم الله لو أطاعنى معاويةُ لجعلك بمنزلة العدوّ الكاشح، فإنه طالما طَويتَ على هذا كَشْحك، وأخفيتَه فى صدرك، وطَمِح بك الرجاءُ إلى الغاية القصوى التى لا يُورِق لها غُصنك، ولا يَخضَرُّ لها مَرْعاك، أما والله ليُوشكنَّ يا بن العاص أن تقع بين لَحْيَىْ ضِرْغام من قريش قويٍّ متمنّعٍ فَرُوس[1] ذى لِبد، يَضغَطُك ضَغْط الرَّحا للحبِّ، لا يُنْجيكِ منه الرَّوَغان، إذا التقت حَلْقتا البِطان[2].

(١) الفروس: الأسد.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد: ١٥١ - ١٥٣.

محاسن كلام عبد الله بن العباس

رضى الله عنه

أبو المنذر، عن أبيه، عن الشعبىّ، عن ابن عباس، أنه دخل المسجد وقد سار الحسينُ بنُ علىّ رضى الله عنه إلى العراق، فإذا هو بابن الزبير فى جماعة من قريش، قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عبّاس حتى ضرب بيده بين عضُدى ابن الزبير، وقال: أصبحتَ والله كما قال الأوّل:(١)

يـا لـك من حُمَّـرةٍ بمَعمـرِ(٢) خلَا لك الجوُّ فبيضى واصفِرى(٣)
ونَقِّـرى مـا شئتِ أن تُنقِّـرى قد رُفِعَ الفَخُّ فماذا تحـذَرِى!

[الرجز]

خلَتْ الحجازُ من الحسين بن علىّ، وأقبلتَ تَهْدِر فى جوانبها! فغضبَ ابن الزبير، وقال: والله إنّك لترى أنّك أحقُّ بهذا الأمر من غيرك! فقال ابنُ عبّاس: إنما يرى [ذلك](٤) مَنْ كان فى حال شكّ، وأنا من ذلك على يقين. فقال: وبأىّ شىء تحقّق عندك أنّك أحقُّ بهذا الأمر منّى؟ فقال ابن عبّاس: لأنّا أحقُّ ممن يُدِل بحَقِّه، وبأىّ شىء تحقّق عندك أنّك أحقّ بها من سائر العرب إلّا بنا! فقال ابن الزبير: تحقّق عندى أنّى أحقّ بها منكم لشرفى عليكم قديمًا وحديثًا. فقال: أنت أشرفُ أم مَنْ قد شَرُفْتَ به؟ فقال: إنّ من شُرفتُ به زادنى شرفًا إلى شرف قد كان لى قديمًا وحديثًا. قال: أفمِنّى الزيادة أم منك؟ قال: بل منك، فتبسّم ابن عباس. فقال: يابن عبّاس، دعنى من لسانك هذا الذى تقلِّبه كيف شئت، والله لا تُحبُّونَنَا يا بنى هاشم أبدًا. قال ابن عباس: صدقت، نحن أهل بيت مع الله عزّ وجلّ، لا نحبّ من أبغضه الله تعالى. فقال: يابنَ عباس، ما ينبغى لك أن تَصفَح عن كلمة واحدة! قال: إنّما أصفَح عمّن أقرَّ، وأمّا عمّن هَرَّ(٥) فلا؛ والفضل لأهل الفضل!

قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا تصرِفْه عن أهله فَتَظلم، ولا تَضَعْه فى غير أهله فَتَنَدَم.

قال ابن الزبير: أفَلستُ من أهله؟ قال: بلى؛ إن نَبذْتَ الحسد، ولزمت الجَدَد.

وانقضى حديثُها، وقام القوم فتفرّقوا(٦).

* * *

(١) مجمع الأمثال ١: ٢٣٩، ونسبه إلى طرفة بن العبد.

(٢) الحمرة: ضرب من الطير كالعصافير؛ وفى مجمع الأمثال والمحاسن والأضداد: «من قبرة».

(٣) الشطر الثانى هو موضع المثل فى هذه الأبيات.

(٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) هر: صوت، وفى إحدى نسخ المحاسن والأضداد: «هد» وهما بمعنى.

(٦) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٢ - ١٥٥.

ورُوِىَ عن ابن عباس أنّه قال: قدمتُ على معاوية، وقد قعد على سريره، وجمع أصحابَه ووفود العرب عنده، فدخلتُ فسلّمْتُ وقعدتُ فقال: مَن الناسُ يا بنَ عباس؟ فقلت: نحن، قال: فإذا غبتم! قلت: فلا أحد. قال: [فكأنّك][1] تَرى أنّى قعدتُ هذا المقعد بكم! قلت: نعم، فبمنْ قعدت؟ قال: من[2] كان مِثل حَرْبِ بن أميّة؟ قلت: مَنْ أكفأ عليه إناءه، وأجاره بردائه. قال: فغضب، وقال: وارِ[3] شخصك منّى شهرًا، فقد أمرتُ لك بصِلَتِك وأضعفْتُها لك.

فلما خرج ابنُ عبّاس قال لخاصّته: ألا تسألوننى ما الّذى أغضب مُعاوية؟ [قالوا: بلى، فقل بفضلك، قال:][1] إن[4] أباه حربًا لم يلتق أحد[4] من رؤساء قريش فى عَقَبة ولا مضيق مع قوم إلّا لم يتقدمه أحد حتى يَجوزَه. فالتقى حرب بنُ أمية مع رجل من بنى تميم فى عَقبة، فتقدمه التميمىُّ، فقال حرب: أنا حرب بنُ أميّة. فلم يلتفت إليه وجازَه، فقال: موعدك مَكّة. فبقى التميمىُّ[5] دهرًا ثم أراد دخول مكّة، فقال: مَنْ يجيرنى من حرب بن أميّة؟ فقالوا: عبد المطّلب، قال: عبدُ المطلب أجلُّ قدرًا من أن يُجير على حَرْب، فأتى ليلًا دارَ الزبير بن عبد المطلب فدقَّ عليه، فقال الزبير للغيداق[6]: قد جاءنا رجل؛ إمّا طالب حاجة، وإما طالب قِرًى، وإما مستجير، وقد أعطيناه ما أراد، قال: فخرج إليه الزبير، فقال:

لاقيتُ حربًا فى الثنيّةِ مُقبلًا ... والصبحُ أبلجَ ضَوْءُه للسارى[7]
فدَعا بصَوْتٍ واكْتَنَى ليروعَنى ... ودَعا بدعْوَتِهِ يريدُ فخارِى
فتركتهُ كالكلب يَنْبَحُ وحدَه ... وأتيْتُ أهلَ معالم وفخارِ
ليثًا هِزَبْرًا يُستجار بقُربِهِ ... رَحْبَ المَباءة مُكرِمًا للجار
ولقد حلفت بزمزمٍ وبمكّةٍ ... والبيت ذى الأحجار والأستار
أن الزبير لمانِعى من خوفِهِ ... ما كبَّر الحُجّاجُ فى الأمصار!

[الكامل]

فقال: تقدّم، فإنّا لا نتقدم مَنْ نُجيرهُ، فتقدّم التميمىُّ فدخل المسجد، فرآه حرب، فقام إليه فَلَطَمه، فحمَل عليه الزّبير بالسيف، فعَدَا حتى دخل دارَ عبد المطلب، فقال: أجرْنى من الزُّبير، فأكفأ عليه جَفْنَه كان هاشمٌ يطعم فيها الناس، فبقى هناك[8] ساعةً ثم قال له: أخْرج. فقال: كيف

---

(١) من المحاسن والأضداد.
(٢) كذا فى ل، وفى ل: «بمن».
(٣) المحاسن والأضداد: «ارحنى من شخصك».
(٤-٤) كذا فى المحاسن والأضداد: وفى ط: «إنه لم يلتق أحد».
(٥) المحاسن والأضداد: «فخافه التميمى».
(٦) هو الغيداق بن عبد المطلب، أخو الزبير بن عبد المطلب واسمه المصعب، وفى المحاسن والأضداد: «لعبده»، وانظر نسب قريش ١٨.
(٧) بلج الصبح: ظهر وأشرق، ومثله أبلج.
(٨) المحاسن والأضداد: «تحتها».

أخرُج وتسعة[١] من وَلَدك قد احتَبَوْا بسيُوفهم على الباب! فألقى عليه رداءً كان كساهُ إيّاه سيفُ بن ذى يزن، له طُرَّتان خضراوان، فخرج عليهم، فعلموا أنه قد أجاره، فتفرقوا عنه[٢].

* * *

قال: وحضر مجلس معاويةَ عبدُ الله بن عباسَ وابنُ العاص، فأقبل عبدُ الله بن جعفر، فلما نظر إليه ابنُ العاص قال: قد جاءكم رجلٌ كثيرُ الخَلَوات بالتمنّى، والطَّربات بالتغنّى، محبٌّ للقيان، كثيرٌ مُزاحهُ، شديدٌ طَماحهُ، صدوفٌ عن السِّنان[٣]، ظاهر الطَّيْش، لَيّن العَيْش، أخّاذٌ بالسَّلف، مِنْفاق بالسَّرَف.

فقال ابنُ عباس: كذبتَ والله أنت! وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنَعْمائه شكور، وعن الخنازَجُور. جواد كريم، سيدٌ حليم، ماجد لهميم[٤]، إن ابتدأ[٥] أصاب، وإن سُئِلَ أجاب، غيرُ حَضِر ولا هيَاب، ولا فَحّاش عَيّاب، حَلَّ من قريش فى كريم النِّصاب، كالهَزَبْر الضِّرْغام، الجرىء المِقْدام، فى الحَسَب القَمْقام[٦]، ليس يُدْعَى لِدعى، ولا يُدْنَى لدَنىّ [لا][٧] كمن اختصم فيه من قريش شرارُها، فغلب عليه جَزّارها، فأصبح أَلْأَمَها حَسَبًا، وأدناها مَنصبًا، ينوء منها بالذليل، ويأوى منها إلى القليل، يتذبذب بين الحيَّيْن كالساقط بين الفِراشيْن، لا المضطرّ إليهم عَرَفُوه، ولا الظاعنُ عنهم فقدوه. وليت شعرى بأىّ قدم تتعرّضُ للرجال، وبأىّ حَسَب تبارز عند النِّضال! أبِنَفْسِك؟ فأنت الوغدُ الزَّنيم، أم بمن تنتمى إليه؟ فأهل السَّفه والطَّيش، والدناءةِ فى قريش، لا بشرفٍ فى الجاهلية شُهِروا، ولا بقديم فى الإسلام ذُكروا، غير أنّك تتكلّم بغير لسانك، وتنطق بالزور فى غير أقرانك[٨]. والله لكان أبينَ للفَضْلِ، وأظهرَ للعدل أنْ يُنزلكَ معاوية منزلةَ البعيد السَّحيق، فإنه طالما سَلسَ داؤك، وطَمِح بك رَجاؤُك: إلى الغاية القصْوى، التى لم يخضرَّ بها رِغْيُك، ولم يُورِق بها غُصْنُك.

فقال عبد الله بن جعفر: أقسمتُ عليك لَمَا أمسكت، فإنك عنّى ناضلْت، ولى فاوضْت.

قال ابن عباس: دعنى والعبد، فإنه قد كان يهدِر خاليًا، إذ لا يجد مراميًا، وقد أتيح له ضَيْغَمٌ شرِس، للأقران مفترِس، وللأرواح مختلس.

فقال عمرو بنُ العاص: دَعْنى يا أمير المؤمنين أنتصِفُ منه، فوالله ما ترك شيئًا.

---

(١) ك، ل: «سبعة» وما أثبته من المحاسن والأضداد.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٤ - ١٥٥.
(٣) المحاسن والأضداد: «الشبان».
(٤) اللهميم: السيد الجواد، وفى المحاسن والأضداد: «حليم».
(٥) المحاسن والأضداد: «إن رمى».
(٦) القمقام: السيد الكبير العطاء.
(٧) من المحاسن والأضداد.
(٨) كذا فى المحاسن والأضداد: و«فى وط: «بغير إزكانك».

قال ابن عبَّاس: دعه فلا يُبقى المبْقى إلّا على نفسه، فوالله إنَّ قلبى لشديد، وإن جوابى لَعَتيد، وبالله الثِّقة، فإنى كما قال نابغة بنى ذُبْيان[١]:

وقبلَك ما قُذِعتُ وقاذَعونى فما نَزَرَ الكلامُ ولا شجانى[٢]
يصُدُّ الشاعر العرّاف عنّى صدُودَ البِكْر عن قَرْمٍ هجانِ[٣]

[الوافر]

(١) ديوانه ٧٧.

(٢) المقاذعة: المهاجاة والمشاتمة. ونزر: قل، وشجانى؛ أحزننى.

(٣) القرم: الفحل الكريم من الإبل، والهجان الأبيض، والكلام على الاستعارة، وفى ديوانه: «الشعر الثنيان» والخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٥ - ١٥٧.

محاسن كلام غانمة بنت غانم
فى شرف بنى هاشم وفخرهم

قيل: ولمّا بلغ غانمةَ بنت غانم سَبُّ معاوية وعمرو بن العاص بنى هاشم، قالت لأهل مكة: أيُّها الناس، إنّ قريشًا لم تلد مَنْ رَقم ولا رُقم؛ سادت وجادت، ومُلّكت فملَكت، وفُضّلت ففَضلت، واصطُفيت فاصطفَت، ليس فيها كدَر عَيْب، ولا أفْنُ[1] رَيْب، ولا حُشِروا طاغين، ولا جادوا نادِمين، ولا المغضوب عليهم ولا الضّالين.

إنّ بنى هاشم أطوَلُ الناس باعًا، وأمجد الناس أصْلا، وأحلم الناس حِلمًا، وأكثر الناس عطاءً، منّا عَبْد مناف الذى يقول فيه الشاعر[2]:

كانَتْ قريشٌ بيضةً فتفلّقت فالمحُّ خالِصُها لعبد مَنافِ[3]

[الكامل]

وولده هاشم الذى هَشمَ الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر[4]:

هَشمَ الثريدَ لقوْمِهِ، وأجارَهُمْ ورجالُ مكّة مُسْنِتُون عجافُ[5]

[الكامل]

ثم منّا عبدُ المطّلب الذى سُقِينا به الغيث، وفيه يقول الشاعر:

ونحْنُ سِنِىَّ المحل قام شفيعنا بمكّةَ يدعو والمياهُ تغورُ

[الطويل]

وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:

آتيتُه ملِكًا فقام بحاجتى وترى العُلَيّجَ خائبًا مذمومًا

[الكامل]

ومِنّا العباس بنُ عبد المطلب، أردَفَه رسولُ الله ﷺ فأعطاه مالَه وفيه يقول الشاعر:

رديفُ رسولِ الله لم أرَ مِثْلَهُ ولا مثلُهُ حتى القيامةِ يُوجَدُ

[الطويل]

---

(١) المحاسن والأضداد: «ولا إفك ريب».

(٢) هو مطرود بن كعب الخزاعى. أمالى المرتضى ٢: ٢٦٨.

(٣) المحُّ: صفرة البيض.

(٤) هو عبد الله بن الزبعرى، أمالى المرتضى ٢: ٢٦٩.

(٥) المسنتون: الذين أصابتهم السنة المجدبة.

ومنّا حمزةُ سيّدُ الشهداء، وفيه يقول الشاعر:

أبا يَعْلَى لـكَ الأركانُ هُـدَّتْ وأنت المـاجدُ البَرُّ الـوصـولُ

[الوافر]

ومنا جعفر ذو الجناحين، أحسنُ الناس حُسنًا، وأكملُهُم كمالاً، ليس بغدّار ولا ختّار، بدّله الله جلّ وعزّ بكلّ يد له، جناحًا يطير به فى الجنة، وفيه يقول الشاعر:

هاتُوا كجعفرنا ومثـلَ عليّنا[١] كانا أعزَّ الناس عندَ الخالِقِ[٢]

[الكامل]

ومنا أبو الحسن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، أفرس بنى هاشم، وأكرم من احتفى وتَنَعَّل[٣] بعد رسول الله ﷺ. ومن فضائله ما قَصُر عنكم أنباؤها، وفيه يقول الشاعر:

وهذا علىٌّ سيّدُ الناس فـاتقوا عَلِيًّـا بإسـلام تقدَّم من قبـلُ

[الطويل]

ومنّا الحَسَن بنُ على رضى الله عنه، سِبْطُ رسول الله ﷺ، وسيّد شباب أهل الجنة، وفيه يقول الشاعر:

ومن يـكُ جـدُّه حقًّـا نبيًّـا فـإنّ له الفضيلة فى الأنـام

[الوافر]

ومنا الحسين بن علّى رضوان الله عليه، حَمله جبريلُ عليه السلام على عاتِقه، وكفى بذلك فخرًا، وفيه يقول الشاعر:

نَفَى عنـه عيبَ الآدميِّـين ربُّـهُ ومَنْ مجدُهُ مجدُ الحسين المطهَّـرِ

[الطويل]

ثم قالت: يا معشر قريش، والله ما معاوية بأمير المؤمنين، ولا هو كما يزعمُ، هو والله شانئ رسول الله ﷺ! إنى آتيةٌ معاوية وقائلةٌ له ما[٤] يَعْرق منه جبينه ويكثرُ منه عويلهُ.

فكتب عاملُ معاويةَ إليه بذلك، فلمّا بلغه أنّ غائمة قد قرُبتْ منه، أمرَ بدار ضيافته فَنُظِّفَتْ، وأُلْقِىَ فيها فُرُش، فلما قربتْ[٥] من المدينة استقبلها يزيد فى حَشَمه ومماليكه، فلما دخلت المدينة أتت دارَ أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبدالرحمن يأمرك أن تصيرى إلى دار ضيافته - وكانت لا تعرفه فقالت: من أنت كلأك الله؟ قال: يزيدُ بنُ معاوية، قالتَ: فلا رعَاك الله

---

(١) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «كجعفرنا الطيار».

(٢) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «ألسنا أعز الناس عند الحقائق».

(٣) ك: «انتعل».

(٤) كذا فى المحاسن والأضداد. وفى ط «بما».

(٥) المحاسن والأضداد: «فلما بلغها أنها قربت منه».

يا ناقص، لست بزائد! فتمعَّر[١] لونُ يزيد وأتى أباه فأخبره، فقال: هى أسَنُّ قريش وأعظمهُم. قال يزيد: كم تعدُّها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت تعدّ على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام، وهى من بقيّة الكرام.

فلما كان من الغد أتاها معاوية، فسلّم عليها، فقالت: علَى المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان. ثم قالت: مَنْ منكم ابن العاص؟ قال عمرو؛ هأنذا. فقالت؛ وأنت تسُبُّ قريشًا وبنى هاشم، وأنت أهل السَّبّ، وفيك السَّبّ وإليك يعود السَّبّ يا عمرو! وإنِّ والله لعارفة بعيوبك وعيوب أمِّك، وإنِّ أذكر لك ذلك عيبًا عيبًا؛ وُلِدْت من أمَةٍ سوداء، مجنونة حمقاء، تبُولُ من قيام، ويَعْلُوها اللئام، إذا لا مسَهَا الفحل كانت نطفُتها أنْفَذَ من نُطفَتهِ. رَكِبَها فى يوم واحد أربعون رجلًا وأمّا أنت فقد رأيتُك غاويًا غيرَ راشد، ومفسِدًا غيرَ صالح، ولقد رأيتَ فحل زوجَتك على فراشك فما غِرتَ ولا أنكرت!

وأمّا أنت يا معاوية، فما كنت فى خير، ولا رُبيت فى خير؛ فما لك ولبنى هاشم! أنساءُ بنى أمية كنسائهم! أم أُعطِى أميّةُ ما أعطِىَ هاشم فى الجاهلية والإسلام! وكفى فخرًا برسول الله ﷺ.

فقال معاوية: أيّتُها الكبيرة، أنا كافٌّ عن بنى هاشم، قالت فإنِّى أكتب عليك عهدًا؛ كان رسول الله ﷺ دعا ربّه أن يستجيب لى خمس دَعَوَات، أفأجعل[٢] تلك الدعوات كلّها فيك! فخاف معاوية وحلف لها ألّا يَسُبّ بنى هاشم أبدًا.

فهذا آخر ما كان بين معاوية وبنى هاشم من المُفاخرة، والله أعلم[٣].

---

(١) تمعر وجهه: تغير غيظا، وفى المحاسن والأضداد: «تغيّر».

(٢) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «فاجعل».

(٣) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٥٧ - ١٥١.

محاسن مجالس أبي العبّاس السّفاح في المفاخرة

قيل: كان أبو العباس يُطيل السهر، وتعجبه الفصاحة، ومُنَازَعَة الرجال، فسهر ذات ليلة وعنده أناس من مُضرَ وفِهْر، وفيهم خالدُ بنُ صَفْوان بن الأهتم التميميّ، وناسٌ من اليمن، فيهم إبراهيم بن مخرَمة الكِنْديّ، فقال أبو العباس: هاتوا واقطعوا ليلتَنا بمحادثتِكم.

فبدأ إبراهيم بن مخرمة، وقال: يا أميرَ المؤمنين، إن أخوالكم هم الناس، وهم العرب الأوَل الَّذين دانت لهم الدنيا، وكانت[1] لهم اليدُ العُلْيا، مازالوا ملوكًا وأربابًا، توارثوا الرِّياسة كابرًا عن كابر، وآخِرًا عن أوّل، يلبس آخِرهُم سرابيلَ أوّلهم، يعرفون بيت المجد ومآثرَ الحمد، منهم النّعمانات والمنذِرات والقابُوسات[2]. ومنهم غسيلُ الملائكة، ومنهم من اهتزّ لموته العرش، ومنهم مكلِّم الذئب، ومنهم مَنْ كان يأخذ كلَّ سفينة غصبًا، ويحوى فى كلّ نائبة نهبًا. ومنهم أصحاب التِّيجان، وكماةُ الفُرسان، ليس من شيء[3] وإن عَظُمَ خَطَرُه، وعُرِف أثره مِن فرَسٍ رائع، وسيفٍ قاطع، أو مجنّ واقٍ، أو دِرْع حَصين، أو دُرّة مكنونة، إلّا وهم أربابُها وأصحابُها؛ إن حلّ ضيفٌ قرَوْه، وإن سألهم سائلٌ أعْطَوه، لا يبلغهم مكاثر، ولا يُطَاوِلُهم مطاوِل ولا مفاخر، فمنَ مِثلهم يا أمير المؤمنين! البيت يمانٍ، والحِجر يمان، والرُّكن يمان، والسيفُ يَمان.

فقال أبو العباس: ما أرى مضر تقول بقولك هذا، وما أظنُّ خالدًا يرضَى بذلك.

فقال خالد: إن أَذِنَ أميرُ المؤمنين وأمِنتُ الموجَدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلم ولا تَرْهَبْ أحدًا.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلِّم وأخطأ المتقحِّم[4]، إذ قال بغير علم، ونطق بغير صواب. أوَ يفخَر على مضرَ، ومنها النبى ﷺ، والخلفاء من أهل بيته! وهل أهل اليمَن يا أمير المؤمنين إلّا دابغُ جلدًا، أو قائدُ قردا، أو حائكُ بُرْدًا! دلَّ عليهم الهُدْهُدُ، وغرقَهم الجُرَذ، وَمَلَكَتْهم أمُّ ولد.

وكيف يكون ذلك لقوم[5] يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسِنة فصيحة، ولا لغة صحيحة، ولا حجّة تَدُلُّ على كتاب، ولا يُعرف بها صواب! وإنهم منّا لإحدى الخلتين[6]: إن حازوا ما قصدوا أكلوا، وإن حادوا عن حُكمنا قتِلُوا.

ثم التفت إلى الكِنَديّ فقال: أتفخر بأكرم الأنام وخيرها، محمد صلى الله عليه وسلم، وبه افتخر

---

(١) كذا فى المستطرف، وفى ك: «كانت».
(٢) المستطرف: «منهم النعمان بن المنذر».
(٣) كذا فى المستطرف، وفى ك: «نسل».
(٤) المستطرف: «المقتحم».
(٥) كذا فى المستطرف، وفى ط: «من قوم والله يا أمير المؤمنين».
(٦) الخلة، بالفتح: الخصلة.

مَنْ ذَكرت! فالمنُّ من الله عزّ وجلّ عليكم؛ أن كنتمْ أتباعَه وأشياعه. منَّا نبيّ الله المصطفى، وخليفة الله المرتضىَ، ولنا السؤْدُد والعلا، وفينا الحِلم والحِجَا، ولنا الشرف المقدَّم، والركن المكرَّم، والبيت المعظم، والجناب الأخضر، والعدد الأكثر، والعزّ الأكبر ولنا البيت المعمور، والمشعَرُ المشهور، والسَّقف المرفوع، وزَمْزَم وبطحاؤها، وجبالُها وصحراؤها؛ وحِياضها وغياضُها، وأحجارها وأعلامها ومنابُرها، وسقايتها وحجابُتها؛ وسِدانةُ بيتها. فهل يَعدلنا عادِل ويبلغ فخرنا قائل! ومنَّا أعلمُ الناس ابن عباس، أَعْلَم البشر، الطَيبة أخباره، الحسنةُ آثاره. ومنَا الوصِيّ وذوالنورَيْن[١] ومنا الصِّدّيق والفاروق[٢]. ومنّا أسد الله، وسيفُ الله[٣] ومنا سيّد الشهداء وذو الجناحين[٤]؛ ومنّا الكماة والفرسان، ومنا الفقَهاء والعلماء، بنا عُرِف الدين ومن عندنا أتاكم اليقين فمن زاحَمَنا زاحمْنَاه، ومن عادانا اصطَلَمناه، ومن فاخرنا فاخرناه، ومن بدَّل سنتنا قتلناه.

ثم التفت إلى الكنديّ، وقال: كيف علمُك بلُغات قومك؟ قال: أنا بها عالم، قال: ما الجَحْمة[٥] فى لغتكم؟ قال: العين، قال: فما المِبْزَم[٦]؟ قال: السنّ، قال: فالشناتر[٧]؟ قال: الإصبعُ، فالصنائر[٨]؟ قال: الآذان. قال: فما القلوب[٩]؟ قال: الذئب، قال: فما الزُّبّ[١٠]؟ قال: اللّحيَة، قال: أفتقرأ كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: نعم، قال: فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[١١]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[١٢]، وقال جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلنا من رسولٍ إلا بلسان قَوْمِهِ﴾[١٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿والْعَيْنَ بالْعَين﴾[١٤]، ولم يقل: «الجَحْمة بالجَحْمة»، وقال: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ﴾[١٥] ولم يقل «شناترهم فى صَنَائرهم»، وقال: ﴿والسنَّ بالسنِّ﴾[١٦]، ولم يقل: «المِبزَم بالمبزم»، وقال: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[١٧]، ولم يقل: «القَلوب»، وقال: ﴿لا تأخُذْ بِلِحيَتِى﴾[١٨]، ولم يقل: «بزُبِى».

وأنا سائلك يا بنَ مخرمة عن ثلاث[١٩] خصال، فإن أنت أقررت بها قُهرت، وإن جحدْتها كَفرت، وإن أنكرت قُتِلْت، قال: وما هى؟ قال: أتعلم[٢٠] أنّ فينا نبى الله المصطفى ﷺ؟ قال: اللهمّ نعم، قال: أتعلم، قال: أتعلم أن فينا كتابَ الله تعالى؟ قال: اللهمّ نعم! قال: أفتعلم أنّ فينا خليفة الله المرتضى؟ قال: اللهمّ نعم[٢٠]! قال: فأىُّ شىء يعدِل هذه الخِصال!

---

(١) الوصى: على، وذو النورين: عثمان.
(٢) الصديق: أبو بكر، والفاروق: عمر.
(٣) أسد الله: حمزة، وسيف الله: خالد.
(٤) سيد الشهداء: الحسين، وذو الجناحين: جعفر.
(٥) اللسان ١٤: ٣٥٢.
(٦) اللسان ١٤: ٣١٥، وفى ط: «الميزم»؛ تصحيف.
(٧) اللسان: ٦: ٩٩.
(٨) اللسان ٦: ١٣٨.
(٩) اللسان ٢: ١٨٢، وفى المستطرف: «الكتع»، وهى يمانية بمعناها أيضا.
(١٠) اللسان ١: ٤٢٩.
(١١) سورة يوسف ٢.
(١٢) سورة الشعراء ١٩٥.
(١٣) سورة إبراهيم ٤.
(١٤) سورة المائدة ٤٥.
(١٥) سورة نوح ٧.
(١٦) سورة المائدة ٤٥.
(١٧) سورة يوسف ١٧.
(١٨) سورة طه ٩٤.
(١٩) المستطرف: «أربع».
(٢٠-٢٠) المستطرف: «الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم، قال: فالقرآن أنزل علينا، أو عليكم؟ قال: عليكم، قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم، فقال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم».

قال أبو العباس: أكفف عنه، فوالله ما رأيت غَلبةً أنكَرَ منها! والله ما فَرغْتَ من كلامِك يا أخا مُضَر حتى ظننتُ أنّه سيُعرج بسريرى إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم[١].

* * *

وعن أبى بكر الهذلىّ: اجتمعنا عند أبى العبَّاس: أهل البصرة وأهل الكوفة، ولم يكن من أهل البَصْرة غيرى، وكان من أهل الكوفة الحجّاج بن أَرْطاة، والحسن بن زيد، وابنُ أبى ليلى، فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة، فقال ابن أبى ليلى: نحن والله يا أمير المؤمنين [خير منهم][٢]، فقلتُ: وكيف يكون ذلك لنا! السِّند والهِنْد، وكَرمان ومُكران، والفُرَض[٣] والعَرَض، والدِّيار وسعة الأنهار!

فقال: ابن أبى ليلى: نحن أعلم منهم علمًا، وأكثر منهم فهمًا، يُقرّ بذلك أهلُ البَصْرة لأهل الكوفة.

قلت: هم أكثر أنبياء، وأقلّ أتقياء، وأعظَمُ كبرياء. منهم المغيرة، الخبيث السريرة، وبَيّان وأبو بَيّان؛ تنسب فيهم من الأنبياء، والله ما أتانا إلّا نبىّ واحد.

قال الحسن بن زيد: أنتم أصحابُ علىّ يوم سرنا إليه لنقتلَهُ، فكفّ الله أيدينا عنه، وسار إلى الكوفة فقتلوه، فأيّنا أعظَمُ ذنبًا!

فقال الحجاج: والله يا أمير المؤمنين، لقد بلغنى أنّ أهل البصرة كانوا يومئذ عشرين ألفًا، وكان أهلُ الكوفة خمسة آلاف. فلما التقت حلْقتا البِطان، وأخذَت الرِجال أقرانَها، شدّت خَيْلهم فى صعيد واحد.

فقلتُ: وكيف يكون ذلك؛ وخرجَتْ ربيعةُ سامعةً مطيعةً، تعين عليًّا، وخرج الأحنف بن قيس فى سعد والرِّباب وهم السَّنام الأعظم، والجمهور الأكبر يعين عليًّا! ولكن سَلْ هؤلاء يا أميرَ المؤمنين، كم كانت عِدّتُهم[٤] يوم استغاثوا بنا، فلما التقينا كانوا كرمادٍ اشتدّت به الرِّيح فى يوم عاصف!

فقال ابن أبى ليلى: والله يا أمير المؤمنين، إنّا لأشرف منهم أشرافًا، وأكثر منهم أسلافًا.

قلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين! هل كان فى تميم الكوفةِ مثل الأحنف بن قيس فى تميم البصرة، الذى فيه يقول الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قَيسٍ ظللنَ مهابةً منه خشوعًا

[الوافر]

---

(١) الخبر فى المستطرف: ١: ١٣١: ١٣٢.

(٢) تكملة يقتضيها السياق.

(٣) الفرض: جمع فرضة، وهى من البحر محط السفن.

(٤) ل: «كم عدتهم يا أمير المؤمنين؟».

وهل كان فى قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم فى قيس البصرة، الذى يقول فيه الشاعر:

كلّ عام يحوى قُتيبةُ نهبًا ... ويزيدُ الأموالَ مالاً جديدًا
دوَّخَ الصُّغْدَ بالقبائل حتى ... ترك الصُّغدَ بالعراءِ قُعُودًا
باهليٌّ تعصّبَ التاجَ حتىّ ... شِبنَ منه مفارِقٌ كُنّ سُودَا

[الخفيف]

وهل كان فى أزْدِ الكوفة مثل المهلّب بن أبى صُفْرة فى أزد البصرة؛ الذى يقول فيه الشاعر:

إذا كان المهلّب مِنْ ورائى ... هَدا لَيلى وقَرَّ لهُ فؤادِى
ولم أخْشَ الدَّنيةَ من أُناسٍ ... ولو صالوَا بقوّةِ قوم عادِ

[الوافر]

وهل كان فى بكر الكُوفة مثل مالك بن مِسمَع فى بكر البصرة الذى يقول فيه الشاعر:

إذا ما خَشِينا من أميرٍ ظلامةً ... أمَرنا أبا غسّانَ يومًا فَعَسْكَرا

[الطويل]

وهل كان فى عبد قيس الكوفة مثل الحكَم بن المنذر بن الجارُود فى عبد قيس البصرة، الذى يقول فيه الشاعر:

ياحَكَم بنَ المنذِر بن الجارودْ ... أنتَ الجوادُ ابن الجوادِ المحمود

فضحك أبوالعباس حتى ضرب برجله، وقال: والله ما رأيت مثل هذه الغَلَبَة قطّ!

محاسن الافتخار بالنبى
صلى الله عليه وسلم

قيل: كان علىّ بن عبد الله بن العبّاس رضى الله عنه عند عبد الملك بن مَرْوان، إذ فاخره عبدُ الملك، فجعل يذكُر أيّام بنى أميّة، فبينا هو كذلك إذ نادى المنادِى للأذان، فقال: أشهد أن لا إلـه إلاّ الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فقال علىّ لعبد الملك:

تلكَ المكارمُ لا قَعبانِ من لبنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا[1]

[البسيط]

فقال عبدالملك: الحقُّ فى هذا أبينُ من أن يكابرَ[2].

* * *

علىّ بن محمد النديم، قال: دخلتُ على المتوكّل وعنده الرضى، فقال: يا علىّ، مَنْ أشعَر الناس فى زماننا؟ قلت: البُحترىّ، قال: وبعده؟ قلت[3]: مَرْوان بنى أبى حفصة عبدك[3]، فالتفت إلى الرضى، وقال: يا بن عمّ، مَنْ أشعَرُ زماننا؟ قال: علىّ بن محمد العلوىّ، قال: وما تحفظ من شِعره؟ قال: قوله:

لقد فاخَرْتنَا من قريشٍ عصابَةٌ بَطٌّ خـدودٍ وامتـداد الأصـابـعِ
فلما تنـازعْنَا القَضـاء قضَى لنا عليهم بما نهْوَى نِداءُ الصوامعِ

[الطويل]

يعنى المساجد.

قال المتوكّل: وما معنى نداء الصوامع؟ قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا رسول الله. قال: وأبيك إنّه لأشعَرُ الناس[4].

---

(١) لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى، طبقات الشعراء لابن سلام ٤٨.
(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٦١.
(٣ - ٣) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «ولد مروان بن أبى حفصة خدمك وعبيدك».
(٤) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٦١.

محاسن ما قيل فى ذلك من الشعر

قال علىّ بن محمد العلوىّ:

عَصَيْتُ الهوى وهَجرْتُ النساءَ ... وكنتُ دواءً فأصبحتُ داءَ
وما أنْسَ لا أنسَ حتّى المماتِ ... نَزِيبَ الظِّباءِ تجيبُ الظباءَ[1]
دَعِينى وصَبرى على نائباتٍ ... فبالصبر نلتُ الثّرى والثّواءَ
وإن يكُ دهرى لَوَى رأسَهُ ... فقد لقِىَ الدّهرُ منّى التِوَاءَ
ليالى أروِى صدُورَ القَنَا ... وأروِى بهن الصدور الظِّماءَ
ونحنُ إذا كان شِربُ المُدَامِ ... شَرِبْنا على الصافنات الدّماءَ
بلَغنا السّماءَ بأنسابنا ... ولولا السماءُ لجُزْنا السماءَ
فحسْبُك من سؤدُدٍ أنّنا ... بحُسن البَلاء كشفْنا البَلاءَ
يَطيبُ الثناءُ لآبائنا ... وذكرُ علىٍّ يَزين الثناءَ[2]
إذا ذُكرَ الناس كنّا ملوكًا ... وكانوا عبيدًا وكانوا إماءَ
هَجانَى قومٌ ولم أهجُهُمْ ... أبَى الله لى أن أقولَ الهجاءَ!

[المتقارب]

وقال غيره:

وإنّى من القومِ الّذين عَرفتهم ... إذ مات منهم سيدٌ قام صَاحبُه[3]
نجومُ سماء كلّما انقضّ كوكبٌ ... بدا كوكبٌ تأوِى إليه كواكبُه
أضاءت لهم أحسابُهُم ووجوهُهُم ... دُجَى الليلِ حتى نظّمَ الجَزْعَ ثاقبُه
فلا تُوعِدنّى يا شُرَيحُ فإننى ... كلَيثِ عَرِين فرَّ عنه ثعالبُه
يُمشّى بأوصال الرجالِ إذا شتا ... قد احمرَّ من نضْحِ الدّماءِ مخالبُه

[الطويل]

وقال آخر:

حُلماءُ حِينَ يقولُ قائلُهُمْ ... بيضُ الوجوهِ مقاولٌ لسُنُ[4]

---

(١) النزيب: صوت الظبى.

(٢) المحاسن والأضداد: «يطيب الثناء».

(٣) لأبى الطمحان القينى، والأبيات فى الأغانى ١٣: ٩ (طبعة الدار)، ومع اختلاف فى الرواية.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٢.

لا يَفطُنون لعَيبِ جارِهِمُ   وهمُ لحفظ جوارِهِ فُطْنُ

[الكامل]

* * *

وأحسن من ذلك كلّه قولُ رسول الله ﷺ وقد أتاه أعرابيّ، فقال: بأبى أنت وأمّى يا رسول الله! مَنْ أكرم الناس حَسَبًا؟ فقال: «أحسنُهم خُلُقًا، وأفضَلُهم تقوى»، فانصرف الأعرابى فقال: «ردّوه»، ثم قال: يا أعرابىّ، لعلك أردتَ نسبًا! قال: نعم، قال: يوسف صدِّيق الله، بنُ يعقوب إسرائيل الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليل الله، فأين مثل هؤلاء الآباء فى جميع الدنيا! ما كان فيها مثلهم أبدًا.

وقال الشاعر:

ولم أرَ كالأسباطِ أبناءَ والدٍ   ولا كأبيهم والدًا حين ينسبُ

[الطويل]

ودخل عُيينة بنُ حِصْن الفزارىّ على النبى ﷺ، فانتَسَبَ إليه، ثم قال: أنا ابنُ الأشياخ الأكارم، فقال ﷺ: «أنت إذًا يوسف صدّيق الله، بن يعقوب إسرائيل الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليلُ الله!».

وقال ﷺ: «خير البَشَر آدم، وخير العرب محمد، وخير الفُرْس سَلْمان، وخير الروم صُهَيْب، وخير الحبشة بِلال». رحمهم الله أجمعين.

مساوئ الافتخار

رُوى عن ابن عَباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفخروا[1] بآبائكم فى الجاهلية، فوالذى نفسى بِيَده لما يُدحرِجُ الجُعَلُ بأنفه خيرٌ من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية».

قيل: وكان الحسن البصرىّ يقول: ابنَ آدم! لِمَ تفتخر، وإنما خرجتَ من مسيل[2] بَوْلَيْن، نطفةً مُشِجَتْ بأقذار.

قال بعضهم لرجل يتبختر[3]: يا هذا، إن أوّلَك نطفةٌ قَذِرة، وآخِرك جيفة مُنْتِنة، وأنت فيما بينهما وعاءُ عَذِرةٍ؛ فما هذه المِشيَة!.

قال: وقيل لعامر بن قيس: ما تقول فى الإنسان؟ قال: ما أقول فيمن إن جاع ضَرَع[4]، وإن شبع طَغَى.

وروى عن ابن عباس أنه قال: يتفاضلون فى الدنيا بالشرف والبيوتات والإمارات والعِتاق[5] والجمال والهيئة والمنطق، ويتفاضلون فى الآخرة بالتقوى واليقين، فأتقاهم أحسَنُهم يقيناً، وأزكاهم عَمَلاً، وأرفَعُهم درجة.

وقيل فى ذلك:

يزينُ الفتى فى الناس صحّةُ عقلِهِ ... وإن كان محظورًا عليه مكاسِبُهْ
يشين الفتى فى الناس قلّة عقلِهِ ... وإن كَرُمَتْ آباؤه وَمناسِبُه

[الطويل]

* * *

وقال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالحسب والنَّسَب؛ ألا ترى أنّ أخوين لأب وأمّ؛ يكون أحَدُهما أشرَف من الآخر؛ ولو كان ذلك من قِبل النَّسَب؛ لما كان لأحدٍ منهما على الآخر فضل؛ لأنّ نسبهما واحد، ولكنّ ذلك من قِبَلِ الأفعال؛ لأنّ الشرف إنما هو فيه لا فى النَّسب. وقال الشاعر فى ذلك:

أبوكَ أبى والجَدُّ لاشكَّ واحدٌ ... ولكنّنا عُودَان : آسٌ وخِرْوَعُ

[الطويل]

* * *

(١) المحاسن والأضداد: «لا تفتخروا».
(٢) المحاسن والأضداد: «سبيل».
(٣) المحاسن والأضداد: «أتفتخر».
(٤) ضرع، أى ذل.
(٥) العتاق من الخيل: كرائمها.

وبلَغَنا عن المدائنى أنه قال: ليس السؤدُد بالشَّرف، وإنما ساد الأحنفُ بن قيسٍ بحِلمه، وحُضينُ بنُ المنذر برأيه، ومالك بنُ مِسمَع بمحبّته فى العامة، وسُوَيد بن منجوف بعطْفه على أرامل قومِه، وساد المهلّب بنُ أبى صُفرة بجميع هذه الخصال.

* * *

قيل: وسمع عُمر بن الخطّاب رضى الله عنه وهو خليفة صوتًا ولغطًا[1] بالباب، فقال لبعض مَن عِنده: اخرُجْ فانظر مَنْ كان من المهاجرين الأوّلين فأدخِله، فخرج الرسولُ فأدخَل بلالاً، وصُهيبًا، وسَلْمان - وكان أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو فى عصابة من قريش جلوسًا بالباب - فقال أبو سفيان: يا معشرَ قريش، أنتم صناديد العرب وأشرافها وفرسانها بالباب، ويدخل حبشىّ وفارسىّ ورومىّ! فقال سهيل: يا أبا سفيان، أنفسكم فلوموا[2] ولا تلوموا أميرَ المؤمنين. دعا القومَ فأجابوا، ودعِيتهم، فأبيتم، وهم يوم القيامة أعظمُ درجات، وأكثر تفضيلاً.

فقال أبو سفيان: لا خير فى مكان يكون فيه بلال شريفًا[3]!

---

(١) ط: ولقطا.

(٢) ك: «فالزموا أنفسكم».

(٣) المحاسن والأضداد ١٦٤، ١٦٥.

مساوئ أصحاب الصناعات

قال المأمون، وذكر أصحاب الصِّناعات: السُّوقة سُفْل، والصُّناع أنْذال، والتجّار بُخَلاء، والكُتّاب ملوكٌ على الناس.

وقال المأمون: الناس أربعة: ذو سيادة، أو صناعة، أو تجارة، أو زراعة؛ فمن لم يكن منهم كان عِيالاً عليهم.

وذكروا أن أبا طالب كان يعالج العطر والبَزّ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بَزّازًا، وكان عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه بَزّازًا، وكان عبد الرحمن بنُ عوف بَزّازًا، وكان سعد بن أبى وقّاص رحمه الله يأبر[1] النَّخل، وكان أخوه عتبةُ رحمه الله نجّارًا، وكان العاص بنُ هشام، أخو أبى جهل بن هشام جَزّارًا، وكان الوليد بنُ المغيرة حدادًا، وكان عُقبة بن أبى مُعَيط خمّارًا، وكان عثمان بنُ طلحة، صاحبُ مفتاح البيت خيّاطًا، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزَّيْتَ والأدم، وكان أميّة بن خلَف يبيع البُرَم[2]، وكان عبدالله بن جُدْعان نَخّاسًا، وكان العاص بنُ وائل، أبوعمروبن العاص يعالج الخَيْل والإبل، وكان جريرُ بن عمرو، وقيس، أبو الضّحاك بن قيس، ومعمر بن عثمان، وسيرين، أبو محمد بن سيرين؛ كلّهم حَدّادين، وكان المسيَّب، أبو سعيد زياتا، وكان ميمون بنُ مِهران بزّازًا، وكان مالك بنُ دينار ورّاقًا، وكان أبو حنيفة صاحب الرأى خزّازًا، وكان مجمّع الزاهد حائكًا.

* * *

قيل: وتّخذ يزيد بن المهلب بستانًا فى داره بخُراسان، فلمّا ولِىَ الأمرَ قتيبة بن مسلم جعله لإبله، فقال له مرزُبان[3] مَرْو: هذا كان بستانًا، وقد اتخذته لإبلك! فقال قتيبة: كان أبى «أشتربان»[4]، وكان أبو يزيد «بستانبان»[5]، فمنهما صار ذلك كذلك[6].

---

(١) يأبر النخل: يصلحه.

(٢) البرم، كغرف: القدور، واحدة برمة كغرفة.

(٣) المرزبان: الرئيس من الفرس.

(٤) الأشتربان: سائق الجمل؛ فارسى.

(٥) بستانبان، هو البستانى، فارسى.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٥، ١٦٦.

محَاسِن النّتاج

ذكروا أنّ جُرْهُم من نتاج ما بين الملائكة وبناتِ آدم، وأن الملاك من الملائكة كان إذا عَصَى ربَّه فى السماء أهبَطَه إلى الأرض فى صورة رجل فى طبيعته ما فى طبيعة بنى آدم، كما صنع بهاروت وماروت فى خبرهما مع الزّهرة، حتى كان من شأنهما ما كان، فعصى بعضُ الملائكة ربَّنا جلّ ذكرُه، فأهبَطَه إلى الأرض فى صورة رجل، فتزوّج أمَّ جُرْهم، فولدتْ منه جُرهُما، فقال شاعرهم:

لا هُـمَّ إنّ جُـرهُمًـا عِبـادُكـا ... النـاس طِـرْفٌ وهمُ تِـلَادُكـا[1]

وكان ذو القرنين أمّه قيرى آدمية، وكان عيرى من الملائكة[2].

* * *

وسَمِع عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه رجلاً ينادى: يا ذا القرنين فقال: فرغتم من أسماء الأنبياء، فارتقيتم إلى أسماء الملائكة!

* * *

وزعموا أن التناكح والتلاقُح قد يقع بين الجنّ والإنس، لقوله جلّ وعزّ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فى الأَمْوالِ والأَوْلَادِ﴾[3]، ولأن الجنّيّات إنما يَعرِضْنَ لصَرْعَى رجال الإنس على جهة العِشْق وطَلَب السِّفاد، وكذلك رجالُ الجنّ لنساء بنى آدم، ومن زعم أن الصَّرْع من المرّة، فقد رَدَّ قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِين يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إلّا كَمَا يَقُومُ الذى يَتَخبطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المسِّ﴾[4]، وقال جلّ ذكره: ﴿وَشَارِكْهُمْ فى الأَمْوالِ والأَولَادِ﴾[5]، وقال عزّ وتعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ﴾[6]، وكان عبد الله بن هلال سِبْط إبليس من قبل أمهاته.

وروى أبو زيد النّحوى أن سِعلاةً أقامت فى بنى تميم حتى ولدت فيهم، ورأتْ ذات يوم بَرْقًا من شِقّ بلاد السّعالَى فحنّت إلى وطنها وطارت إليهم.

وقد قيل: إن الواقَ واق، من نِتاج ما بين بعض النبات وبعض الحيوان.

وقد قيل: إن الثعلب يَسْفِد الهرّة الوحشيّة، فيخرج من بينهما ولد فيه مشابَهةٌ منهما.

قال حسان:

---

(١) الحيوان ١: ١٨٧ وفيه: «النارس طارف».
(٢) انظر الحيوان ١: ١٨٧، ١٨٨.
(٣) سورة الإسراء ٦٤.
(٤) سورة البقرة ٢٧٥.
(٥) سورة الإسراء ٦٤.
(٦) سورة الرحمن : ٥٦.

أبـوك أبـوك وأنـت ابـنُـهُ وبئْسَ الـبُنَىُّ وبئس الأبُ ![1]
وأمّـك سَـوداءُ نُـوبـيّـةٌ كـأنّ أنـامِلَهـا الحُنْـظُبُ[2]
يبيتُ أبـوكَ بهـا مُغـدفًـا كـما سـاورَ الهـرّةَ الثّعْـلبُ

[المتقارب]

وقد يولد من بين الكلاب والثعالب هذه الكلاب السّلوقيّة الماهرة بالصّيد.

وقيل: إنّهُ يخرج من بين الذئب والكلبة ولد يسمّى الدَّيْسم.

وقال بشار:

أدَيسمُ يـابن الـذِّئب من نجـل زارعٍ أتـرْوى هِجائى سـادِرًا غير مُقْصِـرِ!

[الطويل]

وزارع: اسم الكلب يُعْرَف بزارع

وزعموا أنّه يخرج من بين الذئب والضّبع ولد يسمّى السِّمع[3] كالحيّة لا يعرف العِلَلَ، ولا يموت إلاّ بعَرَض يَعرِض له، وأنّه أشدُّ عَدْوًا، وأسرَعُ من الرِّيح؛ قال الشاعر:

مُشبِـلٌ فى الحىّ أحْوى رِفَـلٌّ فـإذا يَـعْـدُو فَـسِـمْـعٌ أزلُّ

[الرجز]

ومن عجائب التركيب فوالجُ[4] البُخت؛ إذا ضَرَبَتْ فى إناث البخْت لم يخرج الحُوار[5] إلاّ قصير العُنق، لا ينال كلأً ولا ماءً، وإذا ضَرَبَتْ الفوالِجُ فى العِراب، جاءت هذه الجوامز[6] والبُخْت الكريمة، ومتى ضَربتْ فُحولُ العِراب فى إناث البخْتُ جاءت هذه الإبل القبيحة المنظر.

* * *

وقد قيل فى الإبل: إن فيها عَرَقًا من سِفَاد الجنّ، وإن فيها إبلًا وحْشيّة هى من بَقَايا إبلِ وبَار، لّما أهلكهم الله جلّ وعزّ بقيتْ إبلُهم وإنّ الجمل منها ربما صار إلى أعطان الإبل فضربَ فى ناقة، فتجيء منه هذه المَهْرِيّة والعَسْجدية التى تسمى الذّهبيّة[7].

* * *

(١) ديوانه ٦١، وفيه: ومر حسان رضى الله عنه بمجلس مزينة بعد ما كف بصره، فضحك به بعضهم فقال».. وذكر الأبيات، مع اختلاف فى الرواية.

(٢) الحنظب: دابة مثل الخنفساء.

(٣) السمع: سبع مركب، وهو ولد الذئب من الضبع، وهو حديد السمع جدًا. وفى المثل يقال: هو أسمع من سمع.

(٤) الفوالج: جمع فالج، وهو الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من الهند للفحلة.

(٥) الحوار: ولد الناقة.

(٦) الجوامز: السراع العدو.

(٧) العسجدية: ركاب الملوك، وهى إبل كانت تزين للنعمان، منسوبة إلى سوق يكون فيها العسجد والذهب (اللسان).

وزعموا أنَّ ببلاد الحبشة ذَكَر الضِّباع يَعرِض للناقة من الوحش، فيسفدها فتلقح بولد على خلقة الناقة والضَّبعُ، فإن كان أنثى يَعرِض لها الثور الوحْشِيُّ فيَضربها فيصير الولد زرافة، ويسمَّى بالفارسية «أشتر كاوبلنك»، أى خرج من بين الجمل والثور والضبع، وقد جَحَد الناس أن تكون الزَّرافة الأنثى تَلَقح من الزَّرافة الذكر.

وأما النعامة فإنها لا تقع إلاَّ من ذكر النعام وإناثها.

* * *

ومن نِتاج الطير ما رواه بعضهم أنه رأى طائرًا له صوت حسن، زعموا أنه من نِتاج ما بين القُمْرىّ والفاختة.

وقنّاص الطير يزعمون أن أجناسًا من الطير تلتقى على المياه فتسافد، وإنهم لايزالون يَرَوْن أشكالاً لم يَرَوْها قطّ، فيقدِّرون أنّها من تلاقيح تلك المختلفة.

* * *

مَسَاوئ النّتاج

فأما من يخرج من بين بنى آدم، فإنه إذا تزوّج خُرسانيٌّ بهندية، خرج من بينهما الذهب الإبريز؛ غير أنه يحتاج أن يحرس ولدهما إذا كان أنثى من زناء الهند، وإذا كان ذَكَرًا من لُواط رجال خراسان.

ومن خَبث النِّتاج ابن المذكَّرة من النساء، والمؤنَّث من الرجال، يكون أخبث تِاجًا من البَغْل، وأفسَد أعراقًا من السِّمْع، وأكثر عيوبًا من كلّ خَلْق، وأن يأخذ بأسوأ خصالِ أبيه، وأرْدَأ خصال أمِّه، فتجتمع فيه خصالُ الدواهى، وأعيان المساوئ، وأنه إذا خرج كذلك لم يَنجَع فيه أدب، ولم يطمع فى علاجه طبيب، وقد رأينا فى دُورٍ ثقيفٍ فتًى اجتمعتْ فيه هذه الخِصَال، فما كان فى الأرض يوم إلاّ وهم يتحَدَّثون عنه بشىء يصغر فى جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه.

والخِلاسِىّ من الناس الذى يخرج من بين الحبشىّ والبيضاء، والبَيْسِرىّ من الناس الذى من بين البيض والهند، ويكون من أحسن الناس وأجملِهم.

محاسِن الوَفاء

قيل فى المثل: هو أوْفَى من فكَيهة[1]، وهى امرأة من قيْس بن ثعلبة، كان من وفائها أنّ السُّليك بن السُّلَكة عزا بكْرَ بنَ وائل، فخرج جماعةٌ من بكر، فوجدوا أثر قَدَم على الماء، فقالوا: والله إنّ هذا لأثر قدم تَرد الماء، فقعدوا له، فلما وافى حَمَلوا عليه، فعدا حتّى وَلجَ قُبَّة فُكَيهةَ، فاستجار بها فأدخلتْه تحت دِرْعها، فانْتَزَعُوا خِمَارَها، ونادت إخوتَها، فجاءوا عَشَرة، فمنعوه منهم، قال: فكان سُلَيْك يقول: كأنّى أجدُ خشونة اسْتِها على ظهرى حين أدخلتنى دِرْعَها، وقال:

لعمرُ أبيك وأنْباء تنمى ... لنِعمَ الجارُ أختُ بنى عُوارَا
من الخَفَرات لم تَفْضَحْ أخاها ... ولم ترفَعْ لوالِدها شَنارَا
عنيْتُ بها فُكَيْهَةَ حين قامت ... كتَفْل السيف وانتزعوا الخِمارَا[2]

[الوافر]

* * *

وقيل أيضًا: هو أوفى من أمّ جميل، وهى من رَهْط أبى هريرة، من دَوْس، وكان من وفائها أنّ هشامَ بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ قتل أبا أزْهر[3]؛ رجلًا من الأزد، فبلغ ذلك قومَه بالسَّراة، فوثبوا على ضِرار ابن الخطّاب ليقتلوه، فعَدَا حتى دخل بيت أمّ جميل، وعاذَ بها، فقامت فى وجوههم، ونادت قومَها، فمنعوه لها، فلما قام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه بالأمر، ظنّت أنّه أخوه، فأتته بالمدينة، فلمّا انتسبتْ عرف القِصّة، وقال: إنى لستُ بأخيه إلّا فى الإسلام، وهو غازٍ وقد عرفْنا مِنَّتَكِ عليه، فأعطاها على أنها بنت سبيل[4].

* * *

ويقال: هو أوفى من السَّمَوْءل بنِ عادياء، وكان من وفائه أنّ امرأ القيس بن حُجر الكِنْدى لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموءَل، دُروعًا له، فلما مات امرؤ القيس غزاه مَلِكٌ من ملوك الشام، فتحرّز منه السموءل فأخذ المَلِك ابنا له، ذكروا أنه كان متصيّدًا، فصاح به: يا سموءل! هذا ابنك فى يدى؛ وقد علمت أن امرؤ القيس ابنُ عَمّى، وأنا أحقُّ بميراثه، فإن دفعتَ إلىَّ الدروع وإلّا ذبحت ابنَك، فقال: أجِّلنى، فأجّله. فجمع أهلَ بيته وشاورهم فكل أشار عليه أن

---

(١) فى مجمع الأمثال عن حمزة: «هى فكيهة بنت قتادة بن شنوءة، خالة طرفه؛ لأن أم طرفة وردة بنت قتادة».
(٢) الخبر فى مجمع الأمثال للميدانى ٢: ٣٧٨، والمحاسن والأضداد: ٧٠، ٧١.
(٣) فى مجمع الأمثال: «أبا زهير الزهرانى». وانظر الاشتقاق ٥٠٤.
(٤) الخبر فى مجمع الأمثال ٢: ٣٧٧ والمحاسن والأضداد ٧١.

يدْفَع الدّروع، وأن يستنقذ ابنَه، فلما أصبح أشرف فقال: ليس إلى دفع الدُّروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع! فذبح الملك ابنَه، وهو ينظر إليه – وكان يهوديًّا – فانصرف المَلك، ووافى السمَوْءل بالدُّروع المَوسم، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال فى ذلك:

وفَيْتُ بـأدْرُعِ الكِنـدىِّ إنّى ... إذا مـاخـانَ أقـوامٌ وفيتُ
وقـالـوا عنـدَه كنـزٌ رغيبٌ ... فـلا وَأبيك أغـدِرُ مـا مَشيتُ
بَنَى لى عـادِيا حِصْنـا حَصينًا ... وبئـرًا كلَّما شئتُ استقيتُ(١)

[الوافر]

وقال الأعشى فى ذلك:

كن كالسموءَل إذ سار الهُمام لـه ... فى جَحْفل كسوادِ الليـل جرَّار(٢)
خَيَّـره خُـطَّتَىْ خَسْفٍ، فقـال لهُ ... اذبح أسيرك، إنّى مانعٌ جـارِى(٣)

[البسيط]

* * *

وقيل: هو أوفَى من الحارث بن عُباد، وكان من وفائه أنّه أسرَ عَدِىَّ بن ربيعة، ولم يعرفْه، فقال: دُلَّنى على عَدِىّ فقال: إن أنا دللتُك على عدىّ أتؤمِّنى؟ قال: نعم. قال: فأنا عدىّ، فخلاّه. وقال فى ذلك:

لَهفَ نَفْسِى عَـلى عَـدِىٍّ وقـد ... أَسْقَبَ للمَوْتِ واحتَوتْـه اليَدانِ(٤)

[الخفيف]

* * *

ويقال: هو أوْفى من عَوف بنِ محلِّم، وكان من وفائه أن مَرْوان القَرَظ(٥) غزا بكر بن وائل، ففضّوا جيشه، وأسَرَه رجل منهم وهو لا يعرفه، فأتى به أمَّه فقالت: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القَرَظ! فقال لها مروان: وما تُرجِّين من مَرْوان؟ قالت: عِظَم فدائه، قال: وكم ترتجين من فدائه؟ قالت: مائة بعير، فقال مروان: ذلك لكِ على أن تردِّينى إلى خُمَاعة بنت عوف بن محلّم(٦)

(١) بعده فى مجمع الأمثال:

طِمِـرًّا تـزلقُ العِـقْبَـانُ عَـنْـهُ ... إذا مـا نـابـنى ظُـلم أبـيـتُ

(٢) من قصيدة طويلة فى ديوانه ١٢٦، ١٢٧، مطلعها:

شُـرَيـحُ لا تـتـركنّى بعـد مـا عِلَقتْ ... حبـالَك اليـوم بعـد القِـدِّ أظفـارى

(٣) الديوان: «إذ سامه خطتى خسف» والخبر فى مجمع الأمثال ٢: ٣٧٤، والمحاسن والأضداد ٧١، ٧٢.

(٤) الخبر فى المحاسن والأضداد ٧٣، ورواية البيت فيه:

لَهْفَ نَفْسِى عـلى عَـدِىٍّ وَقَـدْشَـا ... رفَـهُ المـوتُ واحـتـوتـهُ المنـونُ

وانظر مجمع الأمثال ٢: ٣٧٨.

(٥) فى مجمع الأمثال: «مروان القرظ بن زنباع»؛ وفيه أيضًا: «وإنما سمى بمروان القرظ، لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ».

(٦) فى مجمع الأمثال: «وكان السبب فى ذلك أن ليث بن مالك المسمى بالمنزوف ضرطا لما مات، أخذت بنوعبس=

قالت: ومَنْ لى بمائة من الإبل! فأخذ عودًا من الأرض، فقال: هذا لك بها، فمضت به إلى عوْف، فاستجار بخماعة ابنته، فبعث عمرو بن هند أن يأتيَه به[١]، فقال: قد أجارته ابنتى، وليس إليه سبيل، فقال عمرو: قد آليت ألّا أعفُو عنه أو يضعَ يدَه فى يدى. فقال: عوْف يضع يدَه فى يدك على أن تكون يدِى بينهما فأجابه عمرو إلى ذلك، فجاء عوف بمروان فأدخله عليه، فوضَع يده فى يده، ووضع عوْفٌ يدَه فى أيديهما، فعفا عنه[٢].

* * *

ويقال: إن قُباذ أمر بقَتْل رجل من الطاعنينَ على المملكة، فقُتل، فوقف على رأسه رجل من جِيرانه وصنائعه، فقال: رحمك الله! إن كنت لتكرم[٣] الجار، وتصبر على أذاه، وتواسى أهلَ الخَلّة[٤]، وتقوم بالنائبة! والعجبُ كيف وجَد الشيطانُ فيك مساغًا حتى حَمَلَك على عصيان مَلِكِك! فخرجتَ من طاعته المفروضة إلى معصيته، وقديمًا ما تمكَّن ممن هو أشدُّ منك قوّة، وأثبتُ عزمًا.

فأخذ صاحبُ الشرطة الرجل فحبسه وأنهى كلامَه إلى قُباذ، فوقّع: «يُحسَن إلى هذا الذى شكر إحسانًا يُفضَلُ به، وتُرفع مَرتبتهُ، ويزاد فى عطائه».

* * *

قيل: ولما قَتل كسرى النعمانَ بنَ المنذر، كتب إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يبعث إليه بولد النعمان بن المنذر وتركته؛ من المال والإبل والخيل والسلاح، وكان النعمان أودع ذلك هانئَ بنَ مسعود، فبعث إليه إياس يُعلِمه بما كتب به كسرى، فأبى أن يسلِّم شيئًا من تركة النعمان، فكتب

= فرسه وسلبه، ثم مالوا إلى خبائه فأخذوا أهله، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم، وكان الذى أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسماء، فسألها مروان القرظ: من أنت؟ فقالت: أنا خماعة بنت عوف بن محلم، فانتزعها من عمرو بن ذؤاب لأنه كان رئيس القوم، وقال لها: غطى وجهك؛ والله لا ينظر إليه هزلى حتى أردك إلى أبيك، ووقع بينه وبين بنى عبس شر بسببها. ويقال: إن مروان قال لعمرو وذؤاب: حكمانى فى خماعة، قالا: قد حكمناك يا أبا صهبان، قال: فإن اشتريتها منكما بمائة من الإبل، وضمها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها، وحملها إلى عكاظ، فلما انتهى بها إلى منازل بنى شيبان، قال لها: هل تعرفين منازل قومك ومنازل أبيك؟ قالت: هذه منازل قومى، وهذه قبة أبى؛ قال: فانطلقى إلى أبيك، فانطلقت فخبرت بصنيع مروان، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه، فى أمر خماعة وردها إلى أبيها:

رَدَدْتُ عَلَى عَوْفٍ خُماعَةَ بَعْدَمَا ... خلاها ذؤابٌ غير خَلْوَة خاطبِ
ولو غَيرُها كانت سبيَّة رُمحِهِ ... لجاء بها مقرونةً بالذوائب
ولكنَّهُ ألقَى عَلَيْها حجابَهُ ... رجَاء الثواب أو حِذارَ العَوَاقِبِ
فدافَعْتُ عَنْهَا ناشبًا وقبيلهُ ... وفارِس يعبُوبٍ وعَمْرو بن قارِبِ
ففاديتها لما تبين نصفُها ... بكوم المتالى والعشور الضَوارب
صُهابيّة حُمْرِ العثانِين والذُرَا ... مهاريس أمثالِ الصّخُورِ مصاعبِ

قال: فكانت هذه يدًا لمروان عند خماعة، فلهذا قال: «ذلك لك على أن تؤدينى إلى خماعة بنت عوف»

(١) فى مجمع الأمثال: «وكان عمرو وجد على مروان فى أمر، فآلى ألا يعفو عنه حتى يضع يده فى يده».

(٢) فى مجمع الأمثال: «وقال عمرو: لاحر بوادى عوف»، فأرسلها مثلًا مجمع الأمثال ٢: ٣٧٥، ٣٧٦، المحاسن والأضداد ٧٣، ٧٤.

(٣) ك: «إنك لكنت».

(٤) الخلة هنا: الحاجة.

obeikandi.com

إياس إلى كسرى يعلمه ذلك، فآلى على نفسه لَيستأصلنّ بكرَ بنَ وائل. فكتب إلى إياس يأمره بالمسير إليهم لمحاربتهم فيمن معه من طيّىء وإياد وغيرهم، وكتب إلى قيس بن مسعود الشَّيْبانى المعروف بذى الجَدَّين - وكان عاملًا على سَفوان - يمنع العرب من دخول أطراف السّواد؛ ويأمره أن يسيرَ بمن معه من قومه، فيُعين إياسًا على محاربة بكر بن وائل.

ثم عقد كسرى لقائد من قُوَّاده يسمّى الهامَرْز[١] فى اثنى عشر ألف رجل من أبطال أساوِرَته[٢]، ووجّهه إلى إياس لمعاونته، ثم عقد أيضًا لهُرْمُز جرابزين، وكان أعظم مَرَازِبَته فى مثل ذلك، وأمره أن يَقْفُو أثر الهامرز؛ حتى يوافى إياس بن قبيصة.

فسارت الجيوش إلى بكر بن وائل - وكانوا بمكان يسمَّى ذاقَار، منه إلى مدينة الرسول خمسُ مراحلَ، ممّا يلى طريق البَصرة - فأقبلت الجيوشُ حتى أناخت على بَكْر فأحدقتْ بهم.

ثم إن عظماء بكر بن وائل اجتمعوا إلى هانئ بن مسعود المزدلف، وقالوا: إن هذه الجيوشَ قد أحدقت بنا من كلّ ناحية، فما ترى؟ قال: أرَى أن تجعلوا حصونَكم سيوفَكم ورماحَكم، وتُوطِّنُوا أنفسكم على الموت، فقالوا: نعم. والله لنفعلنَّ. ثم إنَّ قيس بن مسعود أقبل فى سواد الليل من عسكر إياس حتى أتى هانئَ بن مَسعود، فقال: يا بن عمّ، إنه قد حل بكم من الأمر ما قد ترون ففرّق خَيْل النعمان وسلاحَه فى أشدّاء قومِك ليقوَوْا بذلك على القتال، فهى مأخوذة لا محالة إن قتلوا، وإن سلِمُوا أمرتهم فردّوها عليك. وعليك بالجدِّ والصبر، وإيّاك ثم إياك أن تُخفِر ذمّتك فى تركة النعمان حتى تقتَل وعيلك ويُقتَل معك جميعُ قومك.

قال له هانئ: أوصيْتَ يا بن عمِّ محافظًا، فوَصَلتك رَحِم؛ وأرجو ألّا ترى منا تقصيرًا ولا فُتُورًا.

فانصرف قيس ذو الجدَّين من عند هانئ كئيبًا حزينًا باكيًا خائفًا من هلاك قومه، حتى أتى عسكر إياس، وكان يُريه أنه مجامع له على حرب قومه، خوفًا أن يجِدَ عليه كسرى فيقتُله.

فلما أصبح هانئ بنُ مسعود دعا بخيل النُّعمان وسلاحِه ففرَّقه فى أبطال قومه وأشدَّائهم، فَركِبوا تلك الخيول، وكانت ستمائة فرس وستمائة درع، واستلأمُوا[٣] تلك الدُّروع، وكان ذلك فى العام الذى هاجر فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، واتفقت بكرُ بنُ وائل أن تجعل شِعَارها باسم رسول الله ﷺ: «محمد يا منصور»، وذلك قبل أن يُسلموا، وبذلك الاسم نُصِروا وقهروا عدوّهم.

وعَمِدَ رجل من أشراف بنى عِجْل يقال له حَنْظلة بن سَيَّار، إلى حُزُم رحالات النساء فقطعها كلها؛ أراد بذلك أن يمنَع قومه من الهرَب إن وقعت الهزيمة فسمى بذلك مقطِّع الوَضِين[٤].

وإن إياس بن قَبيصة أرسَل إلى بكر بن وائل يخيّرهُم خصلةً من ثلاث: إمّا أن يُسلِّموا تركةَ

---

(١) كذا فى ك وتاريخ الطبرى، وفى ل: «هامون».

(٢) الأسوار، بالضم والكسر: القائد من الفرس، وجمعه أساورة.

(٣) ك، ل: «واستلموا».

(٤) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر.

النعمان، وإمّا أن يَسِيروا ليلًا فى البرارى، فيعتل على كسرى أنهم هربوا، فإن أبَوْا هاتين الخلَّتين خرجوا إلى الحرب.

فتآمروا بينهم، فقالوا: أمَّا أن نسلِّم خِفَارتَنا فلا يكون ذلك، وإن نحن لحقنا بالفلاة أفضيْنا إلى بلاد تميم فيقطعون علينا، ويأخذون ما معنا ويأسروننا، وليس لنا حيلةٌ إلّا القتال، فاختاروا القتال، ووجهوا خمسمائة فارس من أبطالهم، عليهم يزيد بنُ حارثة اليشكُرىّ، وأمرهم أن يكمُنوا للعَجَم.

ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض، وتقدّم الهامرز ووقف بين الصَّفَّين، ونادى بالفارسيَّة «مردى آمردى»، فقال يزيد بن حارثة: ما يقول؟ قال: يدعُو إلى البراز رجلًا لرجُل، فقال: وأبيكم لقد أُنْصِفَ، ثم خرج إليه؛ فاختلف بينهما ضربتان، فضربه يزيدُ ضربةً بالسَّيْف على منكبه فقدّ دِرْعه حتى أفضى السيف إلى مَنكِبه فأبانه فخرَّ ميتًا، الهامَرز، أوّل قتيل بين الصّفّين.

وألقى الله عز وجلّ الرّعبَ فى قلوب العجم، فولّوا منهزمين، ولحق حنظلة بن سيَّار العجلّى بهرمز جرابزين، قائد العجم فطعنه طعنة خرَّ منها ميتًا. ودفع هانئ بن مسعود فرسه فى طلب إياس بن قبيصة حتى لحقه، ومعه قيس بنُ مسعود ذو الجدَّين، فأراد هانئ قتل إياس فمنعه قيس، وحال بينه وبين قتله، وأتبع العجمَ خمسمائة فارس من بنى شيبان لا يلوُون على شىء، يقتلُون يومَهم ذلك من أدركوا منهم، حتى جنَّهم الليل، وبلغتْ هزيمة الأعاجم كسرى بالمدائن.

قال دغْفل: فذُكر هذا الحديثُ لرسول الله ﷺ فقال: «هذا أوّل يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا»، يعنى باسمه ﷺ. فقال: وسُقِط فى يدى كسرى واغتاظ من ذلك غيظًا شديدًا، ووقعت الْوَلْوَلة والعويل بالمدائن. فنَدب كسرى الجنود، وفرّق فيهم السلاح والمال لمعاودَة حرب بكر بن وائل.

ثم إن بطارقَة الرّوم خرجوا على مَلِكهم قيصر فقتلوه، فاشتغل به عن معاودة حرب بكر بن وائل، فكان هانئ بنُ مسعود المزدلِف أحد الأوفياء[1].

* * *

ومنهم الطائىّ صاحبُ النُّعمان بن المنذر، وكان من حديثه أن النُّعمان بن المنذر ركِبَ فى يوم بؤسِه، وكان له يومان: يوم بؤس، ويوم سَعْد، لم يلْقَه فى يوم بؤسه أحدٌ إلّا قتَله، وفى يوم سَعْده أحدٌ إلا حَبَاه وأعطاه. فاستقبله فى يوم بؤسه أعرابىّ من طَيّئ فقال: حَيّا الله المِلك! إن لى صبيةً صغارًا لم أوصِ بهم أحدًا، فإن يأذن لى الملكُ فى إتيانهم، أعطِهِ عهد الله أنّى أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضعَ يدى فى يده. فرقّ له النعمان، فقال: لا، إلّا أن يَضمنك رجل ممن معنا، فإن لم تأت قتلناه، وشريك بن عمرو بن شراحيل نديم النعمان معه، فقال الطائى:

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية ٦، ابن الأثير ١: ٢٨٩، الأغانى: ٢٠ ١٣٢ (ساسى)، معجم البلدان ٣: ٣٥٢.

يا شريك يابن عمرو[١] هل من الموت محاله؟
يا أخا كلّ مُضافٍ يا أخا من لا أخا له[٢]
يا أخا النّعمانِ فُكّ الـ ـيوم عن شَيخٍ غِلاَلَه
إن شَيبانَ قبيلٌ أحسنُ الناسِ فَعَالَهْ[٣]

[مجزوء الرمل]

فقال شريك: هو علىّ أصلح الله المَلِك! فمرّ الطائىُّ والنّعمانُ يقول لشريك: إنّ صدر هذا اليومِ قَد ولّى، ولا يرجع، وشريك يقول: ليس لك علىّ شبيل حتى نُمْسِى، فلما أمسَوْا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك، فقال: ليس علىَّ سبيل حتى يدنُوَ الشخص. فبينا هم كذلك إذ أقبل الطائىّ، فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما، وما أدرى أيُّكما أكرم، لا أكون والله ألأم الثلاثة؛ ألا أنّى قد رفعت يوم بؤسى. وخلّى سبيل الطائىّ، فأنشأ يقول:

ولقد دعَتْنى للخِلاف عشيرتى فأبيتُ عند تجهُّمِ الأقوالِ
إنّى امرؤ منّى الوفاء خَلِيقةٌ وفَعال كلّ مُهَذّبٍ بذّال

[الكامل]

فقال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: دينى؛ قال: وما دينك؟ قال: النّصرانية، قال: اعرضها علىّ، فَعَرضها عليه، فتنصّر النعمان[٤].

* * *

ومنهم وزير مَلِك الصّين، وكان حديثه أنّ شَمِر بن أفريقيس بن أبرهة، خرج فى خمسمائة ألف مقاتل إلى أرض الصين، فلما قارب بلادهم بلغ ذلك مَلِك الصِّين، فجمع وزراءه، فاستشارهم، فقال رئيسهم: أيُّها المَلِكُ، أثِرْ فىّ أثرًا، وخلِّنى ورأيى! فأمر به فجُدع أنفُه، فقام هاربًا مستقبلاً لشَمِر، فوافاه على أربعة منازل بعد خروجه من مَفاوِزَ الصين، فدخل عليه وقال: إنى أتيتُك مستجيرًا، قال شمِر: ممن؟ قال: مِنْ مَلِك الصين؛ لأنّى كنت رجلاً من خاصّة وزرائه؛ وإنّه جمعنا لما بلغه مسيرُك إليه، فاستشارنا، فأشار القوم جميعًا بمحاربتك، وخالفتهم فى رأيهم وأشرتُ عليه أن يعطيَك الطاعة ويحمل إليك الخراج، فاتّهمنى وقال: قد مالأتَ مَلِكَ العرب؛ وكان منه إلىّ ما ترى، ولم آمَنْه مع ذلك أن يقتلَنى، فخرجت هاربًا إليك.

ففرح به شمر، وأنزله معه فى رَحْله، ووعَده من نفسه خيرًا، فلما أصبح وأراد أن يَرحَل، قال لذلك الرّجل: كيف عِلمُك بالطّريق؟ قال: أنا من أعلمِ الناس به، قال: فكم بيننا وبين الماء؟ قال: مسيرة ثلاثة أيام، وأنا مُوردُك اليوم الرابع على الماء فأمر جنوده بالرحيل، ونادى فيهم

(١) مجمع الأمثال: «يا شريكًا يا بن عمر». وكذلك فى المحاسن والأضداد.
(٢) مجمع الأمثال: «ضيفًا قد أتى له».
(٣) كذا فى ط، عن الأغانى، وفى ك ل، والمحاسن والأضداد: «ابن شيبان».
(٤) الخبر فى المحاسن والأضداد ٧٤، ٧٥ وهو برواية أوسع فى مجمع الأمثال ١: ٧٠، ٧٢ والأغانى ١٩: ٨٦ - ٨٨ (ساسى).

ألا تحملوا من الماء إلّا لثلاثة أيّام. ثم سار فى جنودِه والرجل بين يديه، فلما كان فى يوم الرابع انقطع بهم الماء واشتدّ الحرُّ، فقال: لا ماء، وإنما كان ذلك مكرٌ منى لأدفعك بنفسى عن مَلِكى.

فأمر به فضربت عنقُه، فعطش القوم، وقد كان المنجّمون قالوا لشمر عند مولده: إنه يموت بين جبلى حديد، فوضَعَ دِرْعَه تحت قدمَيْه من شدّة الرَّمْضاء، ووضع تُرْسًا من حديد على رأسه من حرِّ الرَّمْضاء، فذكر ما كان قيل له فى ولادته، وقال للقوم: تفرَّقوا حيثُ أحببتم، فقد أورطتُكم. فهلك وجميع من كان معه.

* * *

وحُكى أنه لما حَمل رأسَ مروان بن محمد الجعدىُّ إلى أبى العبّاس وهو بالكوفة قعد له مجلسًا عامًّا، وجاءوا بالرأس، فوُضع بين يديه، فقال لمن حضره: أمنكم أحد يعرف هذا الرأس؟ فقام سعيد بن عمرو بن جعْدة بن هبيرة، فأكب عليه، وتأمله طويلًا، ثم قال: هذا رأس أبى عبد الملك، خليفتنا بالأمس رحمه الله! وعاد إلى مجلسه.

فوثب أبو العباس حتى خرج من المجلس وانصرف ابن جعدة، وتحدَّث الناس بكلامه، فلامه بنوه وأهْله، وقالوا: عرَّضتنَا ونفسَك للبوار! فقال: اسكُتوا قبَّحكم الله، ألستم أشرتم علىّ بالأمس بحرّانَ بالتخلّف عن مَرْوان! ففعلت ذلك غير فعل ذى الوفاء والشكر، وما كان ليَغسِل عار تلك الفَعْلة إلّا هذه، وإنّما أنا شيخ هامة[1]، فإن نجوتُ يَومى هذا من القتل متُّ غدًا، قال: وجعل بَنُوه يتوقّعون رُسُل أبى العباس أن تَطرُقه فى جوف الليل، فأصبحوا ولم يأتِه أحد، وغدا الشيخ، فإذا هو سليمان بن مجالد، فلمّا أبصره قال: يا بن جعدة، ألا أبشِّرك بحسن رأى أمير المؤمنين فيك! إنه ذَكَر فى هذه الليلة ما كان منك، فقال: أماما أخرَج هذا الكلام من الشيخ إلّا الوفاء، ولهو أقرَب بنَا قَرابة، وأمَسُّ بنا رَحِمًا منه بمروان إن أحسَنّا إليه، قال: أجَلْ.

* * *

وذُكِر أنّ المنصور أرسلَ إلى شيخ من أهل الشام، وكان من بطانة هشام بن عبدالملك بن مروان، فسأله عن تدبير هشام فى حروبه مع الخوارج، فوصف الشيخ له ما دبر، فقال: فعل رحمه الله كذا، وصنع رحمه الله كذا! فقال المنصور، قمْ عليك لعنة الله! تطأ بساطى، وتترحّم على عدوّى! فقام الرجل، فقال وهو مولٍّ: إن نعمة عدوّك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلّا غاسِلِى.

فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع فقال: أشْهد أنّك نهيض حُرّة وغِراس شريف، ارجع إلى حديثك. فعاد الشيخُ فى حديثه حتى إذا فرغ دعا له بمالٍ، فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين مالى إليه حاجة، ولقد مات عَنِّى من كنتُ فى ذكره، فما أحوَجَنى إلى وقوفٍ على باب أحد بعده، ولولا جلالةُ أمير المؤمنين، وإيثارى طاعته ما لبستُ نعمة أحدٍ بعْدَه.

---

(١) يقال: هامة اليوم أو غد، أى يموت اليوم أو غدا.

فقال المنصور: إذا شئت، لله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك لكنتَ قد أبقيت لهم مجدًا مخلّدًا، وعزًّا باقيًا.

* * *

عن أبي دُفافة العبسى، قال: حدّثتُ المنصورَ بحديث العجلان بن سَهْل، وكان دَخَل على عبد العزيز بن القعقاع؛ فبينا هو جالس إذ دخل رجلٌ متلطِّخ الثوب بالطين، فقال عبد العزيز: مالك؟ قال: ركبَ هذا الأحوال - يعنى هشام بن عبد الملك - فنفَرتْ ناقتى فسقطتُ. فانتزع العجلان سيفَه، فنفَحه به، ووَثب الرجل، فأخطأه السيف، ووقع فى وسادة فقطّعها، وقال: يا لكع! أعياك أن تسَمِّيَ بأمير المؤمنين وباسمه الذى سمّاه به أبواه أو بكنيته، ونظرت إلى الّذى يعاب به فسمّيته به! أما والله لوددت أن السَّيْف أخذ منك مآخذه!

قال: فكان المنصور يستعيدُنى هذا الخبر كثيرًا ويقول: كيف صنع العجلان بن سهل! مع مثله يطيب الملكُ.

* * *

قال: وأخبرَنا عطّاف، قال: بينا عبد الله بن طاهر مقبل من منزل عبيد الله بن السَّرِىّ بمصر، حتى إذا دنا من بابِه، إذا بشيخ قد قام إليه، فنَاوله رقعةً كانت معه، وقال: أصلح الله الأمير! نصيحة واجبة، فأخذ الرقعة ودخلَ فما هو إلّا أن دخل وخرج الحاجب، فقال: أين صاحبُ الرقعة؟ فقام إليه الشيخ، فأخذ بيَدِه، فأدخله إلى عبدالله فقال: قد فهمتُ رقعتَك هذه، وما تنصَّحت به إلينا، فأنصِفْنى فى مناظَرتك، فقال الرجل: ليقُلْ الأمير ما أحَبّ، قال: أخبرنى، هل يجبُ شكر الناس بعضهم لبعض؟ قال: نعم. قال: وبِمَ يجبُ؟ قال: بإحسان المحسِن، وبفضل المنعم. قال: صدقت، جئتَ إلىّ وأنا على هذه الحال التى ترى، خاتمى بفَرْغانة[1]، وآخر ببرْقة، وحُكمى ونهيى وأمرى جائز فيما بين هذَين الطّرَفين، وقد جُمع لى من العمل ما لم يجمع لأحد قطّ من ولاة المشرق والمغرب والشُّرَطة، وما خرج من هذه الطبقة، ولست ألتفت إلّا إلى نعمة[2] هؤلاء القوم ومِنَّتِهم، لا استفئ إلّا بظلِّها، ولا أعرف غيرَهم سادة ولا كبراء، ولا أئمة ولا خلفاء فأردت أن أكفرُ هذه النعمة، وأجحدَ هذا المعروف وأبايع رجلًا ما امتحن للتقوى[3]، ولا أفاد عِلْمًا للهدى، ولا جرت له على مِلِّىٍّ ولا ذِمِّىٍّ يدٌ سالفة، ولا نعمةٌ سائرة، افترى على الله جلّ ذكره. ولو فعلت هذا الذى دعوتنى إليه كنت ترضى به فى مكارم الأخلاق وشكر المنعمين!

قال: فسكت الرجل ولم يُحِرْ جوابًا. وكان دعاه إلى بَيعة ابن طباطبا. وقال بعضهم: إنه كان دسيس المأمون.

---

(١) فرغانة: كورة واسعة بما وراء النهر.

(٢) ك «لنعمة».

(٣) ك: «بالتقوى».

برون الكبير، قال : وجّه إليّ المأمون، وقد مضى من الليل الثلث، فقال لى: يا برون، قد أكثر علينا أصحابُ الأخبار فى أن شيخًا يَرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندُبهم، ويُنْشِد أبياتًا من الشِّعْر، فاركب أنتَ وعلىّ بن محمد، ودينار بن عبد الله، حتى تَرِدُوا هذه الخرابات، فتصيروا مِنْ وراء جُدْرانها فإذا رأيتم الشيخ وقد ورد وبكى وأنشدَ، فأتونى به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زِلّيّة[1] روميّة وكرسىّ جديد، وإذا شيخٌ وسيمٌ جميلٌ له صَلْعَة وهامة، فجلس يبكى، ويقول:

ولما رأيتُ السَّيفَ قد قدّ جعفرًا ... ونادى مُنادٍ للخليفة فى يحيى
بكيتُ على الدّنيا وأيقنت أنهُ ... قُصارَى الفتى يومًا مُفارقةُ الدنيا
أجعفرُ إن تَهلك فربَّ عظيمةٍ ... كشفْتَ ، ونُعمَى قد وَصلتَ بها نعمَى
فقُل للذى أبدَى ليحَيى وجعفرٍ ... شَماتَتَهُ: أبشِر لتَأتيهُمُ العُقْبى
لئن زال غُصنُ الملك عن آل بَرْمَكٍ ... فمازال حتى أثمرَ الغُصنُ واستعلى
وما الدهرُ إلّا دولةٌ بعد دولةٍ ... تُبدِّلُ ذا مُلكًا، وتُعقبُ ذا بلوى
على أنها ليست تدُوم لأهلها ... ولو أنها دامت لكنتمْ بها أوْلى
بنى برمَكٍ كنتْم نجومًا مضيئةً ... بها يَهتدِى فى ظلمةِ الليل مَنْ أسْرى
لأيكمُ أبكى؟ أللفضل ذى النّدى ... أمِ الشيخ يحيى، أم لمحبوسِه موسى!
أم الملك المصلوب من بعد عزةٍ ... أم أبكى بكاء المعولات أم الثّكلى!
لِكُلُّكُم أبكى بعين غزيرةٍ ... وقلبٍ جريح لا يموت ولا يحيا

قال: فتراءينا له، ثم قَبضْنا عليه فجزع وفزع وقال: مَن القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين، وهذا فلان وفلان، قال: وما الذى تريدون؟ قال برون: فأعلمتهُ ما أمَر به أمير المؤمنين؛ من أخذه إلى مجلسه، قال: ذَرْنى أوص فإنى لا آمنهُ، ثم تقدَّم إلى بعض العلّافين فى فُرْضة الفيل، فأخذ بياضًا، وأوصَى فيه وصيّةً خفيفة، ودَفعها إلى الغلام، وسرْنا به.

فلما مَثَل بين يدى المأمون زَبَرَه وقال: مَنْ أنت؟ وبماذا استوجَبَ البرامكةُ ما تفعله فى دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين، للبرامكة عندى أيادٍ خَضِرة أفتأذن لى أن أحدِّثك؟ فقال: سديدًا[2].

قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة، من أهل دِمشق، كنت بها من أولاد الملوك، فزالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال، فلمّا ركبَتنى الديون، واحتجت إلى بَيْع مسقط رأسى ورءوس آبائى، أشاروا علىّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعى نيّف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبيّة، وليس معنا ما يباع ولا ما يُرْهن، حتى دَخلتُ بغداد، ونزلنا بباب الشام فى بعض المساجد، ودعوت بثوَيْبات لى قد كنت أعددتها لا ستمِيح بها الناسَ، وتركتهم جياعاً، وركبتُ شوارعَ بغداد، فإذا أنا

---

(١) الزلية: تعريب: «زيلو» وهو البساط.
(٢) ك: «شديدًا».

بمسجد مُزخرَفٍ؛ وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالستهم بأحسن زىٍّ وزينة وبِزَّة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعتُ فى القوم، وَوَلجتُ المسجد وجلست بين أيديهم؛ وأنا أُقَدِّم وأُؤخِّر، والعَرَق يسيل منّى، لأنّها لم تكن صناعتى، فإنّى لكذلك، وإذا أنا بخادم قد أقبلَ وقال للخادمين: ازعِجا القوم، فأزعجا القوم وأنا منهم فأدخلونَا دار يحيى ابن خالد، ودخلتُ معهم، فإذا بيحيى جالسٌ على دَكّةٍ له وَسَط بُسْتان، فسلّمنا وهو يعدُّنا، مائة رجل وواحدًا، وبين يدى يحيى عشرة من ولده. وإذا غلام أمرَدُ حين عَذَّر[1] خدَّاه، قد أقبل من بعض المقاصير، بين يديه مائة خادم من ذهب، ورجل من ذهب فى كل مجمرة متنطِّقون، فى وَسَط كل خادم من منطقة ألف مثقال، مع كل خادم مجمرة قطعة من العُود كهيئة الفِهْر[2]، قد ضُمّ إليه مِثلُه من العنبر السلطانىّ، فوضعوه بين يدى الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يَحيى، ثم قال يحيى للزبرقىّ القاضى: تكلم، فقد زوجت ابنتى عائشة من ابن عمّى هذا من بيت نار النَّوبَهار[3]، فخطب القاضى، وشَهد القاضى والنَّفَر، وأقبلوا علينا بالنُّثار بينادق المسك والعنبر، فالتقطتُ والله يا أمير المؤمنين مِلءَ كُمّى، ونظرتُ وإذا يحيى فى الدِّكة ما بين المشايخ، ويحيى وولده والغلام، ونحن مائة رجل واثنا عشر رجلًا، فخرج إلينا مائةُ خادم واثنا عشر خادمًا، مع كل خادم صينيّة فضّة عليها ألف دينار شاميّة فوضع بين يدىْ كلّ رجل منّا صينيّة، فرأيتُ القاضى والمشايخَ يصبُّون الدنانير فى أكمامهم، ويجعلون الصوانىّ تحت آباطهم، ويقوم الأوّل فالأول، حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى، لا أجسر على الصِّينية فغمز لى الخادم، فجسرتُ عليها، وجعلتُها فى كُمّى، وأخذت الصِّينية وقمتُ وأنا أمرُّ طولَ الصَّحْن والتفتّ ورائى، هل يتبعنى أحد؟ فإنّى لكذلك أطاول الإلتفاتَ ويحيى يلحظنى، فقال للخادم: ائتنى بالرجل، فرُددت إليه، فأمر فسلِبْتُ الدنانير والصينية، ثم أمرنى بالجلوس، فجلستُ، فقال: ممّن الرجل؟ فقصصتُ عليه قصّتى، فقال: علىَّ بموسى، فأتَى به، فقال: يابُنَىّ، هذا رجل غريب، فخذه إليك، اخلطْه بنفْسك ونعمتِك.

فقبض علىَّ موسى، وأخذنى إلى بعض دُوره، فقصف علىّ يومى وليلتى، فلمّا أصبح دعا بأخيه العبّاس وقال له: إنّ الوزير أمرنى بالقَصف على هذا الفتى، وقد علمتَ تشاغُلى فى دار أمير المؤمنين، فاقبض عليه وقاصِفه. فلمّا كان من غد تسلّمنى أحمدُ، ثم لم أزل وأيْدى القوم تتداوَلُنى عشرة أيام، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى، فى الأموات هم أم فى الأحياء!

فلما كان فى اليوم العاشر دُفعتُ فى يدى الفضل، فقصَفَ علىّ، فلما كان فى الحادى عشر جاءنى خادم مع عشرة من الخَدَم، فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام فقلت: واوَيْلاه! سُلبتُ الدنانير والصّينيّة، وقد تمزّقتْ ثيابى واتسختْ، وأُخْرج على هذه الحالة! إنّا لله وإنا إليه راجعون!

فرفع لى الستر الأوّل والثانى والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفِعَ السابع قال لى الخادم: تمنَّ ما شئتَ. ورفع لى ستر عن حُجرة كالشمس استقبلنى منها رائحة العود والنّدّ ونفحات

---

(١) عذر خداه: أى نبت الشعر فى عذاريه والعذار: الشعر الذى يحاذى الأذن.

(٢) الفهر: الحجر يملأ الكف.

(٣) النوبهار: معبد النار.

المسك، وإذا أنا بصبيانى يتقلبون فى الحرير والدِّيباج وأنا قد حمل لى ألفُ ألف درهَم مبدّرة[١] وعشرة آلاف دينار، وقبالتين[٢] بضيْعَتين، وتلك الصينيّة مع الدنانير والبنادق.

فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرةَ سنةً، لا يعلمُ الناس: أمِن البرامكة أنا، أم من بيت نار النوْبهار، أم رجل غريب اصطنعونى!

فلما جاء القوم البليّة، ونزلتْ بهم من الرشيد النازلة، قَصدنى عَمرو بن مَسْعَدة، وألزمنى من الخراج فى هاتين الضَّيْعَتَين مالا يفِى دَخلهُما به، فلما تحامل علىّ الدهر، كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندُبهم.

فقال المأمون: علىَّ بعمرو بن مَسْعَدة، فلما أُتِىَ به قال له: يا عمرو، أتعرف الرجل؟ قال: نعم؛ هو من بعض صنائع البرامكة. قال كم ألزمته فى ضيعته: كذا وكذا قال: رُدَّ عليه كلّ ما استأديته إياه فى سنِيه، وأوغر[٣] ضيعتيْه تكونان له ولعقِبه من بعده.

فعَلا نحيبُ الرجل بالبكاء يرثى البرامكة، فلما طال بكاؤه، قال له المأمون: فمِمَّ بكاؤك وقد أحسنَّا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أيضًا من صنائع البرامكة! أرأيتُك يا أمير المؤمنين، لو لم آت خراباتِ القوم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى ما فعل؛ من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه!

قال إبراهيم بنُ ميمون: فلقد رأيتُ المأمون وقد دمعتْ عينُه، واشتدَّ حزنه على القوم وقال: صدقت لعمرى! هذه أيضًا من صنائعهم، فعليهم فابْكِ، وإياهم فاشكر.

---

(١) مبدرة، أى مجعولة بدرًا، والبدرة عشرة آلاف درهم.

(٢) فى الأساس: كل من تقبل بشىء مقاطعة، وكتب عليه بذلك الكتاب، فعمله القبالة (بالكسر)، وكتابه المكتوب عليه هو القبالة (بالفتح).

(٣) يقال: أوغر الملك فلانا أرضاً، أى جعلها له من غير خراج.

مسَاوئ قلّة الوَفَاء وَالسّعاية

يقال: إنّ رجلاً رَفَعَ رقعة إلى عمر بن الخطاب رحمه الله يسعى فيها ببعض أصحابه، فوقّع فيها: «تقرَّبت إلينا بما باعَدَك من الرحمن، ولا ثواب لمن آثر عليه».

* * *

قيل: وَرَفَعَ منتصِح رقعةً إلى عبد الملك بن مروان، فَوَقّع فيها: «إن كنتَ كاذبًا عاقبناك، وإن كنتَ صادقًا مَقَتْنَاك، وإن استقلتنا أقلناك». فاستقاله الرجل.

* * *

قيل: وكتب صاحبُ بريد هَمَذان إلى المأمون بخُراسان يُعلِمه أن كاتبَ البريد المعزول، أخْبَرَه أنّ صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطَئا على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال، واقتسماها بينهما، فوقّع المأمون: «إنا نرى قبول السِّعاية شرًّا من السِّعاية، فإن السِّعاية دَلالة، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شيءٍ كمن قَبِلَه وأجازه، فانْفِ الساعىَ عنك، فلو كان فى سعايته صادقًا، لقد كان فى صدقه لئيما، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر على أخيه»[1].

* * *

قال: وقال المأمون لولده: يابَنِىّ، نَزّهوا أقدارَكم، وطَهِّروا أحسابكم عن دَنَس الوُشاة وتمويه سِعايتهم، فكلُّ جانٍ يَدُه فى فيه، وليس يَشِى إليكم إلاَّ أحد رجلين: ثقةٌ وظَنِين[2]؛ أما الثّقة فقد قيل: إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاة قدرَه؛ وأمَّا الظنين: فأهل أن يُتَّهَم صِدقُه، ويكذب ظنّه، ويردّ باطله. وما سَعَى رجل برجل إلىَّ قطّ إلاَّ انحطّ من قدره عندى مالا يتلافاه أبدًا، فلا تُعطوا الوُشاةَ أمانيَّهم فيمن يشُون بهم؛ فقد قال بعضُ الملوك لرجل سَعَى بآخر: لو كنتَ أنتَ أنا؛ ما كنتَ صانعًا به؟ قال: كنت أقتلُه، فقال: أمّا إذْ لم تكن أنت أنا؛ فإنى غيرُ قاتِله، ومع ذلك فلا تَدَعوا الفَحص عمّا يُلقى إليكم مما تحذرون رجوعَ ضرَرِه عليكم.

* * *

عَوانة قال: قام رجل إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، عندى نصيحة، قال: وما نصيحتك هذه؟ قال: كان فلان عاملاً ليزيد والوليد وعبد الملك، فخانهم فيما تولاّهُ، واقتطع أموالاً جليلة، فمُرْ باستخراجها منه، فقال: أنت شرٌّ منه وأخوَنُ؛ حيث اطّلَعْتَ على أمره وأظهرتَه،

---

(١) المحاسن والأضداد ٧٥.

(٢) الظنين: المتهم.

ولولا أنّى [أخاف أن] أنفر أصحابَ النَّصائح لعاقبتكم، ولكن اختر منّى خَصْلَةً من ثلاث، قال: أعرضْهُنَّ يا أميرَ المؤمنين، قال: إن شئتَ فتّشتَ عمّا ذكرت، فإن كنتَ صادقًا مَقَتْنَاك، وإن كنت كاذبًا عاقَبْناك، وإن شئت[١] أقلْناك، قال: تقيلُنى يا أميرَ المؤمنين قال: قد فعلت، فلا تعودنّ بعدها إلى أن تظهِرَ من ذى مروءة ما كتمه الله وستَرَه[٢].

(١) المحاسن والأضداد: «وإن استقلت».
(٢) المحاسن والأضداد ٧٦.

obeikandl.com